المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الدعوة والإعلام
قسم الدعوة والاحتساب

فقه الأولويات في الدعوة إلى الله تعالى

إعـــــــداد الدكتـــــورة

الجوهرة بنت صالح الطريفي

الأستاذ المشارك بالمعهد العالي للدعوة والاحتساب
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

العام الجامعي
1433هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (٢).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ (٣) (٤).

أما بعد:

فإن فقه الأولويات فقه شرعي، دعوي، منضبط، له أصوله وقواعده التي ينطلق منها الداعية إلى الله تعالى في دعوته، ويعد أمرا ضرورياً ومعتبراً عند التخطيط ووضع الاستراتيجيات الدعوية، وفق الترتيب المنطقي لها؛ و فقه الداعي ة بالأولويات يساهم

(١) سورة آل عمران، آية: 102.

(٢) سورة النساء، آية: 1.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 – 71.

(٤) خطبة الحاجة التي كان يعلمها رسول الله ﷺ أصحابه أخرجها أبو داود في كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح حديث رقم (2118)، ج2، ص 591. طبع دار الدعوة – دار سحنون – الثانية 1413هـ واللفظ له؛ وأخرجها الترمذي في كتاب النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح حديث رقم (1105) ج 3 ص 413 طبع دار الدعوة – دار سحنون – الثانية 1413هـ. والحديث صححه الألباني (انظر: صحيح سنن أبي داود لمحمد ناصر الدين الألباني – حديث رقم (1860 – 2118) ج 2 ص 399 طبع مكتب التربية العربي لدول الخليج – الأولى 1409 – 1989م.

في معرفته لمراتب الأعمال كي يعرف ما حقه التقديم وما حقه التأخير ، و مرتبة كل قول وعمل ؛ وبالمقابل فان فقدان الداعية لهذا الفقه عند الممارسة العملية للدعوة، يوقعه في الحرج عند ظهور ردود الفعل العكسية ، أو الوقوع في العقبات فيجد حاله بين خيارين ، فإما أن يستسلم للأزمة ، وإما أن يعالج الحدث بعد فوات الفرص، ومما يشار إليه هنا أن إغفال فقه الأولويات أو فقه الواقع عند إنشاء الأعمال أو اتخاذ القرارا ت يؤثر على استمراريتها وعلى الثمار المطلوبة منه ا مما يؤكد أهمية مراعاة فقه الأولويات و استيعابها .

ولا يخفى أن عدم فقه الداعية بأولويات الدعوة قد يوقعه في الخطأ؛ كما يحدث من بعض المنتسبين للدعوة في تهوينهم للأمر العظيم، وتعظيمهم للأمر الحقير، وتقديمهم للمفضول مع وجود الفاضل، وإغراقهم في الجزئيات الفرعية مع غفلتهم عن الأصول الكلية مما قد يؤثر سلبا على الدعوة إلى الله تعالى .

وعليه تتأكد الحاجة للاعتناء بفقه الأولويات دراسة وعملاً ؛ ***وأذكر من أسباب اختيار هذا الموضوع إضافة لما سبق:***

- ضرورة الدعوة للعمل وفق الأولويات وهذا منهج دعوي ثابت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.
- الحاجة لتصحيح مفاهيم عملية الدعوة وتوضيح صورها المشروعة التي تحقق أهداف الدعوة وخططها المستقبلية.
- الحاجة لتعليم أبناء الدعوة فقه الأولويات والفقه الواقعي نظريًا وتطبيقيًا وتدريبهم على أن ينظروا إلى أبعاد العمل الدعوي.

ومن هنا ولأهمية هذا الموضوع في الدعوة إلى الله تعالى وللسعي إلى بث ثقافة فقه الأولويات بين الدعاة، عقدت العزم بعد الاستعانة بالله عز وجل الكتابة في:

فقه الأولويات في الدعوة إلى الله تعالى

والذي هدفت من خلاله إلى :

- بيان أهمية ترتيب أولويات الدعوة والتأصيل الشرعي لفقه الأولويات في الدعوة، ونماذجها من السيرة النبوية وحياة السلف الصالح والدعاة المعاصرين.
- توضيح الضوابط الشرعية التي تعين الداعية على تحديد أولويات أموره الدعوية، وبيان الآثار السلبية لعدم الأخذ بفقه الأولويات.

-منهج البحث:

نظرا لطبيعة هذا البحث فقد اعتمدت فيه على المنهج الاستقرائ ي([1]) في محاولة استقراء النصوص والأدلة مع ضرب الأمثلة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم وسلفنا الصالح والدعاة المعاصرين، مع وضع الأسس الواضحة التي يقوم عليها فقه الأولويات في الدعوة إلى الله.

وقد راعيت في بحثي الأمور الآتية :

١ - عزوت الآيات القرآنية إلى سورها ، وذكرت اسم السورة ورقم الآية منها في الحواشي.

٢ - حرصت على رسم الآيات القرآنية بالرسم العثماني وضبطها بالشكل ، اتباعاً لرسم المصحف الشريف ، وقد جعلتها بخط مُميز عن الأحاديث وغيرها.

٣ - خرّجت الأحاديث من مصادرها الأصلية، فإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما لم أشر إلى صحته ، بل أكتفي بعزوه إليهما لاتفاق العلماء على صحتهما.

٤ - حاولت أن يكون سير بحثي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية وكلام أهل العلم.

٥ - حرصت على جمع ونقل المادة العلمية من مصادرها الأصلية مباشرة ، وإذا لم أجد بُغيتي ، رجعت إلى المصادر والمراجع الحديثة.

---

[1] - انظر مفهوم المنهج الاستقرائي، قواعد أساسية في البحث العلمي د/ سعيد إسماعيل صيني ص 73 مؤسسة الرسالة - الأولى ، 1415 .

-تقسيمات البحث

قسمت البحث بعد المقدمة والتمهيد إلى أربعة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: التأصيل الشرعي لفقه الأولويات في الدعوة.

المبحث الثاني: الضوابط الشرعية لفقه الأولويات في الدعوة .

المبحث الثالث: نماذج وأمثلة من فقه الأولويات من السيرة النبوية وحياة السلف الصالح والدعاة المعاصرين.

المبحث الرابع: الآثار السلبية لعدم الأخذ بفقه الأولويات.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

هذا وأسال الله عز وجل بمنه وكرمه أن يوفقنا ويعيننا على العلم والعمل الذي يرضيه.

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين.

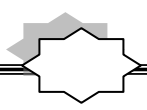

التمهيد

مفهوم فقه الأولويات وأهميته

ويحتوي على مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم فقه الأولويات في الدعوة والتعريف به.

المطلب الثاني: أهمية معرفة فقه الأولويات في حياة الداعية.

المطلب الأول

مفهوم فقه الأولويات في الدعوة والتعريف به

تعريف مفردات العنوان:

الفقه لغة: جاء في لسان العرب: (الفقه: العلم بالشيء والفهم له، والفقه في الأصل: الفهم. يقال أوتِي فلانٌ فقهاً في الدين أي فهماً فيه، وفقه فقهاً بمعنى علم علماً) (١).

وفي القاموس المحيط: (الفقه بالكسر، العلم بالشيء والفهم له، وفقهه تفقيهاً علمه) (٢).

وفي تاج العروس من جواهر القاموس: (الفقه بالكسر: العلم بالشيء، والفقه، الفهم والفطنة) (٣).

والفقه اصطلاحاً: (هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، وقيل هو الإصابة والوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلق به الحكم، وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل) (٤).

تعريف الأولويات:

لغة: أولى اسم تفضيل فينحصر استعماله اللغوي في معنيين الأول بمعنى أحق وأجدر، والثاني بمعنى أقرب. إلا أن هذا المعنى الأخير يرجع في أصله إلى المعنى الأول.

جاء في لسان العرب: (ويقال فلان أولى بهذا الأمر من فلان أي أحق به.. وفلان أولى بكذا أي أحرى به وأجدر) (٥).

وجاء في تاج العروس: (هو أولى بكذا، أي أحرى به وأجدر) (٦).

---

(١) لسان العرب لابن منظور الأفريقي ج 5 ص 150 طبع دار صادر بيروت الأولى 1997م.

(٢) القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ص1614 طبع مؤسسة الرسالة – الثانية – 1407.

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس – مرتضى الزبيدي ج19 ص 72 تحقيق علي شيري، طبع دار الفكر 1414هـ.

(٤) التعريفات – علي بن محمد الجرجاني تحقيق إبراهيم الأبياري ص216 طبع دار الريان للتراث.

(٥) لسان العرب لابن منظور ج 6 ص 490.

(٦) تاج العروس من جواهر القاموس ج 20 ص 314.

ولمادة (أولى) استعمالات أخرى كثيرة، لكنها لا تخرج في مجموعها عن المعنى الأصلي الذي هو الأحقية والأجدرية.

ومن هذه الاستعمالات:

قولهم: أولى لك: تهدُّد ووعيد ومنه قوله تعالى: ﴿ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ [1] ومعناه: أي الشر أقرب إليك [2].

أولاه على اليتيم: أوصاه عليه [3].

أولاه معروفاً: أي أسداه إليه [4].

ولمعرفة المقصود بمصطلح فقه الأولويات في الدعوة إلى الله تعالى ينظر إلى تعريف مفردات هذا المصطلح: فالفقه: هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية.

والمقصود بالأولويات هو الترتيب أي ترتيب الأحكام حسب أهميتها وفضلها فيقدم الفاضل على المفضول والأهم على المهم.

الدعوة إلى الله تعالى: والدعوة بمعنى النشر والبلاغ وقد صارت علماً مستقلاً له موضوعه، وخصائصه وأهدافه ويمكن تعريف الدعوة إلى الله بأنَّها :(العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق) [5].

فيكون المقصود بمصطلح فقه الأولويات في الدعوة إلى الله:

---

(١) سورة القيامة، آية: 34.

(٢) انظر: تاج العروس ج20 ص 314؛ لسان العرب لابن منظور ج 6 ص 492.

(٣) انظر: تاج العروس ج 20 ص 315؛ لسان العرب ج 6 ص 492.

(٤) انظر: تاج العروس ج 20 ص 315؛ لسان العرب ج 6 ص 493.

(٥) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها – د. أحمد أحمد غلوش ص 10 طبع دار الكتاب المصري – القاهرة – الثانية 1407هـ.

هو فقه وعلم ما يتعلق بالدعوة إلى الله تعالى، وترتيب أمورها، فيما يجب أن يقدم أو يؤخر حسب أركان الدعوة. الداعية والمدعو وموضوع الدعوة والوسيلة والأسلوب ويكون هذا الترتيب وفق الضوابط الشرعية المستمدة من كتاب الله عز وجل وسنة نبينا محمد ﷺ (١).

(١) ينظر في تعريف مصطلح الأولويات كتاب (فقه الأولويات الدعوية دارسة تأصيلية تحليلية) علي بن محمد بن عبدالله الشنقيطي ص 43 – رسالة دكتوراه غير منشورة.

المطلب الثاني

أهمية معرفة فقه الأولويات في حياة الداعية

يعد علم فقه أولويات الدعوة من العلوم الهامة للداعية، إذ قد يتوقف نجاح الدعوة وحصاد ثمراتها على هذا الفقه، والداعية وهو يدعو إلى دين الله عز وجل لابد أن تكون دعوته وفق منهج الله، قال تعالى عن نبيه ﷺ :﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ (١).

قال الشوكاني- يرحمه الله- في تفسير هذه الآية: (" قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ " أي قل يا محمد للمشركين هذه الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها سبيلي: أي طريقتي وسنتي.. " أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ " أي على حجة واضحة، والبصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل.. " أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي " أي ويدعو إليها من اتبعني واهتدى بهديي والمعنى: ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو. وفي هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق أن يقتدي به في الدعاء إلى الله) (٢) فعلى ذلك لابد من الالتزام بطريقة النبي ﷺ ومنهجه في الدعوة، فيقدم ما يجب تقديمه، ويؤخر ما ينبغي تأخيره، إذ أن فقه الداعية لدعوة النبي ﷺ وكيف سار عليها يختصر على الداعية كثيراً من الجهد والوقت.

فيكون المنهج لديه واضحاً، فينزل على واقعه الدَعَويِّ ما فقهه من سيرة النبي ﷺ في دعوته، وكيف كانت دعوته، وماذا قدم واعتنى؟، وماذا أخر؟ وكيف كانت أساليبه ووسائله صلوات ربي وسلامه عليه.

---

(١) سورة يوسف، آية: 108.

(٢) فتح القدير – محمد بن علي الشوكاني ج 3 ص 59 طبع دار الفكر – 1403هـ، وانظر: تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير ج 2 ص 477 طبع مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة 1413هـ.

والنبي ﷺ سار وفق منهج إلهي يوجهه ويرعاه، فسير الدعاة على هذا المنهج النبوي يحمي الدعوة والداعية من الوقوع في الانحرافات والمزالق، كما أن فقه الداعية للأولويات كما هي في المنهج النبوي تمكنه من معرفة الميزان الشرعي السوي الذي يجعله قادراً على معرفة أي الأعمال أحب إلى الله وأكثر أجراً. وإن كانت معصية أيها أكثر وزراً، وإن كانت وسيلة وأسلوباً فأيهما أقدر على تحقيق الهدف.

وقد قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين- يرحمه الله- في شرح قوله تعالى: ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [1] (أي على بصيرة في ثلاثة أمور:

الأول: على بصيرة فيما يدعو إليه... الثاني: على بصيرة في حال المدعو.. الثالث: على بصيرة في كيفية الدعوة...) [2].

والعلم يسبق القول والعمل كما بين ذلك العلماء بل إن الإمام البخاري بوب باباً في كتاب العلم سماه (باب العلم قبل القول والعمل) [3] لقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [4] فبدأ بالعلم.

وقال ابن حجر يرحمه الله -: (قال ابن المنير: أراد الله أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به فهو متقدم عليهما لأنه مصحح للنية المصححة للعمل) [5].

---

(١) سورة يوسف، آية: 108.

(٢) زاد الداعية إلى الله – الشيخ محمد بن صالح العثيمين ص 9 – 12 طبع الجمعية السعودية للدراسات الدعوية.

(٣) صحيح البخاري للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ج 1 ص 25 طبع دار الدعوة – دار سحنون – الثانية 1414هـ.

(٤) سورة محمد آية: 19.

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ج 1 ص192 – طبع دار الريان للتراث – القاهرة – الثانية 1409هـ.

وفقه الدعوة من العلوم المهمة؛ لأنه موصل لله والدار الآخرة وقد بين الإمام المقدسي خطأ من خص الفقه بمعرفة الفروع وعللها وبين أن اسم الفقه في العصر الأول دل بشكل عام على علم طريق الآخرة بل إن الحسن البصري عد الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة.. العابد لربه الناصح لعباده [1].

(١) مختصر منهاج القاصدين للإمام أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ص 20 طبع دار التوفيق – دمشق – الأولى 1422هـ.

المبحث الأول
التأصيل الشرعي لفقه
الأولويات في الدعوة

المبحث الأول

التأصيل الشرعي لفقه الأولويات في الدعوة

فقه الأولويات منهج أصيل، من مناهج الأنبياء والرسل عليهم الصلاة و السلام، والصحابة الكرام –رضوان الله عليهم– ممن تربى على منهاج النبوة، والسلف الصالح من بعدهم.

وقد جاءت دعوات الأنبياء عليهم الصلاة و السلام مؤصلة لهذا الفقه، ومراعية له، بل كان إعداد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصناعتهم على عينه تعالى، يشرع لهم سبل الدعوة وطرائقها ويهديهم للتي هي أقوم، فكان القرآن الكريم في عرضه لمسائل الدعوة على هذا النمط الرباني الفريد يعد أضخم وأوثق مصدر للدعوة عرفته الأرض (١).

وقد كان منهج القرآن الكريم في بيان الدعوة من خلال عرض سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، من خلال توجيه الله عز وجل لهم ليقوموا بالدعوة كما يجب، وفيما هو حتمي، وعاجل، وليبدءوا بأهم المهمات، وأهم القضايا التي تعاني منها أممهم، وقد فقهوا تلك الأولويات، وساروا بدعوتهم خطوة، خطوة، حتى وصلوا بها إلى بر الأمان.

ومما يدل على أن دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام راعت الأولويات؛ اتفاق مناهجهم، ودعواتهم كلها على أصل الأصول، وأهم المهمات، وأوجب الواجبات والمقدم دائماً وأبداً وهو الدعوة إلى التوحيد، وتقرير العقيدة الصحيحة أولاً، وهذا الأصل، اتفق عليه جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام وجاءت به جميع الرسالات، وهو القاعدة الصلبة التي بني عليها الجميع دعواتهم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ ﴾(٢).

---

(١) انظر: الدعوة إلى الله تعالى عبد الرب نواب الدين ص 123 طبع دار القلم – الدار الشامية – الأولى – 1410هـ.

(٢) سورة الأنبياء، آية: 25.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي- يرحمه الله-: (فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم زبدة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق، المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة)(١).

فكانت العقيدة هي الأساس في دعواتهم ثم يليها معالجة كل نبي للمشكلات التي تواجه قومه، أو بالأصح المنكرات التي تؤثر على هذه المجتمعات وتؤثر على عبادتها وإخلاصها لله عز وجل.

ووحدة العقيدة جلية على ألسنة أولي العزم من الرسل، وغيرهم تبع لهم، قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾(٢).

وكان كل نبي من أنبياء الله تعالى يبدأ دعوته بقوله: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾(٣).

ومع ذلك تربط هذه العقيدة بمشكلات العصر الموجودة عند أقوامهم فشعيب عليه السلام، يقول: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ ﴾(٤)، ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ﴾(٥).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي ج 5 ص223 طبع مكتبة الخلفاء – الرياض – مكتبة الهدى – الخبر – الأولى – 1408هـ؛ وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج3 ص172.

(٢) سورة الشورى، آية: 13.

(٣) سورة الأعراف الآيات: 59- 65- 73- 85، وسورة هود الآيات: 50- 61- 84.

(٤) سورة هود، جزء من آية: 84.

(٥) سورة الأعراف، جزء من آية: 85.

وفي هذا ربط الالتزام بالعقيدة الصحيحة مع الالتزام بشرع الله من النهي عن الفساد، وإقامة العدل وعدم ظلم الناس.

وكذلك كانت دعوة سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط... ومحمد ﷺ الذي اتبع الأولويات في دعوته، وفق سنة شرعية إلهية سلكها القرآن الكريم في تشريعه، وطبقها النبي ﷺ عملياً في دعوته، فالقرآن الكريم لم ينزل عليه جملة واحدة، وإنما نزل منجماً، يتدرج في الرقي بالمجتمع، وفي إصلاح الفساد الاجتماعي المتجذر شيئاً فشيئاً، وهكذا بدأ بأحكام العقيدة قبل أحكام الشريعة.

وفي العقيدة بدأ بالإيمان بالله قبل الإيمان بالأركان الأخرى، وفي العبادات بدأ بالصلاة قبل غيرها. مقدماً في كل هذا الأهم على المهم.

وإذا كان التدرج في التشريع علاجاً تربوياً قد انتهى أمره بعد اكتمال الشريعة واستقرارها، فإن التدرج في الدعوة لم ينته إذ الحكمة التي تطلبت التدرج أول مرة يمكن أن تظهر مرة أخرى عندما تظهر دواعيها ومقتضياتها (١).

وقد بينت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مراعاة القرآن الكريم للأولويات والحكمة من ذلك حيث قالت فيما أخرجه البخاري عنها: (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب (٢) الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء "لا تشربوا الخمر" لقالوا: "لا ندع الخمر أبداً"، ولو نزل "لا تزنوا لقالوا "لا ندع الزنا أبداً...) (٣).

قال ابن حجر- يرحمه الله-: (أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وإن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة وللكافر

---

(١) انظر: فقه الأولويات دراسة في الضوابط – محمد الوكيلي ص 63 المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1416هـ.

(٢) (حتى إذا ثاب) أي: رجع (انظر فتح الباري ج8 ص 657).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن ج 6 ص 101.

والعاصي بالنار، فلما أطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام ولهذا قالت "ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها" وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف) (١).

ويدل على ذلك أيضاً ما أخرجاه في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حيث بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم (٢)، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب) (٣).

قال ابن حجر- يرحمه الله- : (بدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب؛ لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن النفرة) (٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا) (٥).

---

(١) فتح الباري ج8 ص 657.

(٢) (كرائم أموالهم): أي نفائسها التي تتعلق بها نفس مالكها (انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ج 4 ص 167).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وتُردُّ في الفقراء حيث كانوا ج 2 ص136 واللفظ له؛ ومسلم في كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام حديث رقم (29 – 19) ج1 ص 50 – صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي طبع دار الدعوة – دار سحنون – الثانية 1413هـ.

(٤) فتح الباري ج3 ص 421.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة كيلا ينفروا ج1 ص25.

وهذا من الفقه في أسلوب الدعوة والتعليم، فيراعي الأوقات المناسبة كي لا يصابوا بالملل، قال ابن حجر- يرحمه الله-:(قال الخطابي المراد أنه كان يراعي الأوقات في تعليمهم ووعظهم ولا يفعله كل يوم خشية الملل) (١).

وذكر ابن حجر- يرحمه الله- بعض الفوائد من الحديث السابق حيث قال:

(وفيه رفق النبي ﷺ بأصحابه، وحسن التوصل إلى تعليمهم وتفهيمهم ليأخذوا عنه بنشاط لا عن ضجر ولا ملل، ويقتدى به في ذلك، فإن التعليم بالتدريج أخف مؤنة وأدعى إلى الثبات من أخذه بالكد والمغالبة) (٢).

(١) فتح الباري ج11 ص 231.

(٢) المرجع السابق ج11 ص 232.

المبحث الثاني

الضوابط الشرعية لفقه الأولويات في الدعوة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ضوابط شرعية في تقديم الأولويات عند التخطيط والعمل.

المطلب الثاني: ضوابط شرعية في تقديم الأولويات عند التزاحم.

المطلب الأول

ضوابط شرعية في تقديم الأولويات عند التخطيط والعمل

التخطيط هو أسلوب في التنظيم يهدف إلى وضع خطة تؤدي إلى استخدام الموارد مادية ومعنوية وبشرية على أفضل وجه ممكن، وبأقل تكاليف ممكنة، وفي وقت مناسب وفقاً لأهداف محددة من قبل (١).

والتخطيط أمر ضروري لتحقيق أهداف الدعوة وبقدر العناية والاهتمام به بقدر ما تصل الدعوة إلى تحقيق أهدافها.

فلابد لأي عمل جاد من الدراسة والتخطيط، ورسم خارطة طريق قبل التنفيذ، ومن أجل أن يكون التخطيط والعمل ناجحاً فلابد من الالتزام ببعض الضوابط ومنها:

الضابط الأول: تحديد الهدف:

لابد للداعية من تحديد الهدف الذي يريد الوصول إليه، فالمرء في طريقة إلى الهدف قد تعترض له في طريقة منعطفات، وإذا لم يضبط اتجاه المسير فإنه قد لا يصل إلى الهدف، أو يصل إلى مكان آخر، أو قد يصل متأخراً.

فتحديد الهدف يجعل الرؤية واضحة لدى الداعية، يعرف ما الذي يريد تحقيقه. وكل من يطالع تاريخ الإسلام والسيرة النبوية — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام — بشكل خاص يدرك أن التخطيط كان أحد الأسباب الرئيسة والمهمة التي أدت إلى نجاح الدعوة، وتثبيت العقيدة القائمة على العلم والعمل، وما كان لذلك أن يتأتى إلا بتوفيق الله عز وجل أولاً ثم بتحديد الأهداف المراد إنجازها.

ومما يدل على ذلك في دعوة النبي ﷺ أنه لما ضيقت قريش عليه وعلى المسلمين فآذوهم، بدأ بالبحث عن مكان آمن يعبدون الله فيه، لذا أمر الصحابة بالهجرة إلى الحبشة، ثم عرض نفسه على أهل الطائف، ثم لما ردوه عرض نفسه على

(١) فقه الأوليات – محمد الوكيلي ص 142.

القبائل، وكانت مواسم الحج وأسواق العرب مناسبات مهمة للالتقاء بذوي الشأن من رؤساء القبائل وغيرهم من الأفراد العاديين [١].

و يظهر من خلال استقراء النصوص أنه تم:

أولاً: تحديد الهدف: وهو وجود وطن آمن للمسلمين يعبدون الله فيه بأمن وطمأنينة، ويبلغون دين الله للناس وهم آمنون.

ثانياً: وضع خطة تتكون من شقين:

الشق الأول: عرض الإسلام على القبائل العربية في مواسم الحج وأسواق العرب بعكاظ ومجنة وذي المجاز [٢] وقد أبت أكثر القبائل العربية [٣] حتى هيأ الله لرسوله ﷺ نفراً من الخزرج في السنة الحادية عشرة من البعثة عرض عليهم الإسلام وقبلوا ذلك بسبب توعد اليهود لهم بنبي سيظهر في هذا الزمن وسيتبعونه أي اليهود فيقاتلون العرب قتل – عاد وإرم – وكان اليهود أهل كتاب يجدون ذلك مكتوباً عندهم [٤] – فكانت هذه مرحلة أولى تعد تمهيدية في الخطة لتحقيق الهدف.

ثم تلاها المرحلة الثانية وهي بيعة العقبة الأولى حيث جاء أهل المدينة في الموسم التالي من العام الثاني عشر للبعثة في اثني عشر رجلاً من المسلمين فبايعوه بيعة العقبة (الأولى) وكان الإسلام قد فشا في المدينة حتى لم يبق دار إلا ودخلها الإسلام [٥] وقد نصت البيعة على أصل الإسلام وهو تحقيق العبودية لله عز وجل وحده لا شريك له، والنهي عن المحرمات التي اتفقت الشرائع السماوية والأعراف على قبحها وترذيلها فكان نص البيعة: (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية – مهدي رزق الله ص 242 طبع مركز الملك فيصل للبحوث – الأولى – 1412هـ.

(٢) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية تحقيق شعيب الأرنؤوط – عبدالقادر الأرنؤوط ج 3 ص 43 طبع مؤسسة الرسالة الطبعة السابعة والعشرون 1414هـ.

(٣) انظر: زاد المعاد لابن القيم ج3 ص 43؛ السيرة النبوية مهدي رزق الله ص242.

(٤) انظر: السيرة النبوية مهدي رزق الله ص 244.

(٥) انظر: زاد المعاد ج3 ص 45.

تقتلوا أولادكم، ولا تأتون ببهتان تقترفونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله...) [1].

فكانت هذه البيعة وما قبلها من إسلام النفر الستة وعودتهم لقومهم منذرين تعد النواة التي كانت سبباً في فشو الإسلام في أهل المدينة، ثم تحولها بعد ذلك إلى دار للإسلام وعاصمة للمسلمين.

الشق الثاني: اشتراط الإيواء والنصرة وما يشتمل على ذلك من حقوق وواجبات.

كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس ويطلب من ذوي الشأن أن يحموه، دون أن يكرههم على دعوته [2] وكان مما يقوله ﷺ: (ألا رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي) [3].

وتعد هذه مرحلة ثالثة؛ إذ حدث في هذه المرحلة بيعة العقبة الثانية، وقد كانت هذه البيعة شاملة للمبادئ التي سيتم مشروعيتها بعد الهجرة إلى المدينة، وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة [4] وقد نصت البيعة على ما يلي:

أخرج الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه، قال: (قلنا يا رسول الله نبايعك؟. قال: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار – باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة ج 4 ص 250، ومسلم في كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها حديث رقم (41 – 1709) ج2 ص1333.

(٢) انظر: السيرة النبوية – مهدي رزق الله ص 242.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه كتاب السنة، باب في القرآن حديث رقم (4734) ج5 ص103؛ وأخرجه ابن ماجه في المقدمة حديث رقم (201) ج1 ص73 سنن ابن ماجة للحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد. طبع دار الدعوة – دار سحنون – الثانية 1413هـ، والحديث صححه الألباني (انظر: صحيح سنن أبي داود للشيخ محمد ناصر الدين الألباني حديث رقم (3960 – 4734) ج3 ص897 طبع مكتب التربية العربي لدول الخليج.

(٤) انظر: السيرة النبوية مهدي رزق الله ص 255.

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة، قال: فقمنا فبايعناه) (١).

النتيجة:

تحقق الهدف بإسلام أهل المدينة وأصبحت المدينة داراً للإسلام وقد كانت البيعة الثانية الأساس الذي قامت عليه الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وانطلاقها من هناك إلى أصقاع الدنيا (٢).

ثم سار الصحابة -رضوان الله عليهم- على ذات النهج، في تحديد الأهداف، ووضع الخطط المناسبة لتحقيقها، ومن أمثلة ذلك؛ لما أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيوش الفاتحين إلى أرض فارس، من أجل هدف محدد، وهو الدعوة إلى دين الله، في تلك البقاع وإزالة كل عائق يمنع الناس من اعتناق هذا الدين الذي ارتضاه الله عز وجل لعباده، وقد كان لابد من فتح البلاد عنوة بعد أن رفض قادتها الاستجابة لرسائل النبي ﷺ بقبول هذا الدين، والسماح بنشره في أرض الله، ورفض الدخول فيه، أيضاً لما عرضه القادة الفاتحون عليهم، وكانت خطة المسلمين في مواجهة الدولتين العظميين آنذاك فارس والروم أن تفتح المعركة بكل ثقلها على جبهة، وتقوم بدور الدفاع على الجبهة الثانية بحيث تبقى الدولتان في ذعر شديد وضعف معنوي كبير يحول دون التفاهم بينهما وكانت فارس هي التي تشكل الخطر الأكبر بالنسبة للمسلمين إذ كان الفرس يدعمون المرتدين، ويحاولون القضاء على المسلمين (٣).

ودخل المسلمون بلاد الفرس، وبدأت مدنهم تتهاوى بأيدي المسلمين، فلما أعياهم الأمر طلب رستم من المسلمين رجلاً عاقلاً يجيبه عن بعض أسئلته فأرسل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ج 3 ص322 طبع دار الدعوة - دار سحنون – الثانية 1413هـ، وقال ابن حجر في الفتح عن هذا الحديث: (عند أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان). (انظر: فتح الباري ج7 ص263).

(٢) انظر: السيرة النبوية مهدي رزق الله ص 255.

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي محمود شاكر ج3 ص 143 طبع المكتب الإسلامي – السابعة 1411هـ.

قائد المسلمين سعد بن أبي وقاص له المغيرة بن شعبة ثم ربعي بن عامر رضي الله عنهما وكانت إجاباتهم متوافقة فكان جواب ربعي رضي الله عنه لما سأله عن سبب مجيئهم إلى بلادهم وحربهم لهم، قال: (إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام) (١).

وكان جواب المغيرة رضي الله عنه؛ قد ذكر فيه إنهم ليسوا طالبوا دنيا وإنما طلاب آخرة ثم عرض عليهم دعوة الإسلام (٢).

فكان الهدف محدداً والرؤية واضحة: (إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد).

والخطة محكمة: بفتح الحرب على جبهتي دولتي فارس والروم مما يحول دون اتفاقهما ومساعدة إحداهما الأخرى بحيث تنشغل كل دولة بنفسها وكانت النتيجة فتح بلاد فارس والروم أيضاً ودخول الناس في دين الله أفواجاً حيث حرروا العباد من عبادة العباد – (سادتهم وقادتهم) إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

الضابط الثاني: تحديد أنواع الأعمال المراد إنجازها:

ويكون ذلك وفق الأولويات، ووفق معيار ثابت لا يخطئ؛ وهو القرآن الكريم والسنة المطهرة، فيحدد الداعية في الخطة أنواع الأعمال التي يريد إنجازها، فيهتم بما اهتم به القرآن الكريم والسنة النبوية، ويكون اهتمامه بحسب احتياجات المدعوين، أو بحسب المنكرات الموجودة لديهم من ترك معروف أو فعل منكر ويكون ذلك بالتدرج، فإن كان الخلل بالعقيدة يبدأ بها قبل كل شيء فهذا مما اعتنى به النبي ﷺ عناية كبيرة حتى أمضى سنواتٍ طوالاً في تقرير العقيدة؛ دل على ذلك ما ذكرته أم المؤمنين

(١) البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ج 7 ص40 طبع دار الريان للتراث الأولى 1408هـ.

(٢) المرجع السابق ج7 ص 39.

عائشة رضي الله عنها: (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام) (١).

فنزول القرآن له مرحلتان مكي ومدني، وكل منهما له خصائصه، فالمكي هو ما نزل في المرحلة المكية في بداية الدعوة فكان من خصائصه الدعوة إلى التوحيد، وعبادة الله وحده، وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والجزاء، وذكر القيامة وهولها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية(٢).

والمدني ما نزل بالمدينة وقت انتشار دعوة الإسلام ودخول الإيمان في قلوب المسلمين، واستقرار العقيدة الصحيحة في نفوسهم، فكانت السور المدنية تلبي احتياجات تلك المرحلة، حيث بين فيها العبادات، والمعاملات والحدود ونظام الأسرة، والمواريث، وفضيلة الجهاد والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية في السلم والحرب، وقواعد ومسائل التشريع (٣).

وكأن المرحلتين تبينان أوضاع الناس في العصور اللاحقة للعصر الأول وهي إما – مجتمع جاهلي – الخلل فيه بأصول الإسلام فيكون البدء بمعالجتها ثم يتدرج بعد ذلك في باقي الأحكام.

أو مجتمع مسلم لكن فيه من يكون مقصراً في شرائع الإسلام فيبدأ بها حسب أهميتها.

ولابد من إدراك أن هناك من الأعمال ما يجب تأجيله إلى وقت الإمكان كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- يرحمه الله- : (وكذلك التائب من الذنوب والمتعلم، والمسترشد لا يمكن أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين، ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداء، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن

(١) تقدم تخريجه ص 16.

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن – مناع القطان – ص 63 طبع مؤسسة الرسالة – الثامنة 1401هـ.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص 64.

علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفى الرسول ﷺ عما عفى عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات؛ لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط فتأمل هذا الأصل فإنه نافع) (١).

فالالتزام بهذا الأصل الذي ذكره شيخ الإسلام- يرحمه الله- في تأجيل بيان بعض العلوم والأعمال إلى الوقت الذي يتمكن فيه المدعو من تطبيقه، وإطاقته فإنه نافع للدعاة معرفته وممن بين ذلك الشيخ محمد بن صالح العثيمين حيث قال: (ليس من الحكمة أن تتعجل وتريد من الناس أن ينقلبوا عن حالهم التي هم عليها إلى الحال التي كان عليها الصحابة بين عشية وضحاها. ومن أراد ذلك فهو سفيه في عقله بعيد عن الحكمة، لأن حكمة الله عز وجل تأبى أن يكون هذا الأمر؛ ويدلك لهذا أن محمداً رسول الله ﷺ وهو الذي ينزل عليه الكتاب نزل عليه الشرع متدرجاً حتى استقر في النفوس وكمل. فرضت الصلاة في المعراج قبل الهجرة بثلاث سنوات، وقيل سنة ونصف... على خلاف بين العلماء في هذا... ومع هذا لم تفرض على وضعها الآن، أول ما فرضت كانت ركعتين للظهر والعصر والعشاء والفجر، وكانت المغرب ثلاثاً،... وبعد الهجرة وبعد أن أمضى رسول الله ﷺ ثلاث عشر سنة في مكة زيدت صلاة الحضر فصارت أربعاً في الظهر والعصر والعشاء، وبقيت صلاة الفجر على ما هي... وبقيت المغرب ثلاثاً...) (٢).

الضابط الثالث: تحديد الوسيلة التي سيتم اتباعها في كل حالة:

عند تحديد أي هدف يراد تحقيقه فلابد من وسيلة للوصول إليه، ومعرفة هذه الوسيلة، وتحديدها، يساعد الداعية في الوصول إلى هدفه.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج20 ص60.

(٢) زاد الداعية إلى الله – الشيخ محمد بن صالح العثيمين ص 25.

بالرجوع إلى حديث بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن؛ الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب) (١).

في هذا الحديث بين النبي ﷺ لمعاذ كيف يصل إلى هدفه، وكان بالوسائل التالية:

أ. معرفة حال المدعو، فإن ذلك يوضح للداعية الطريقة المناسبة للحديث معهم، وتحديد نقطة البداية، فالمسلم غير الكتابي، والكتابي غير المشرك وغير الوثني.

وممن بين ذلك الإمام ابن حجر-يرحمه الله- في شرح حديث معاذ السابق حيث قال في شرح قوله ﷺ: (إنك ستأتي قوماً أهل كتاب) (هو كالتوطئة للوصية لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان) (٢).

وهذا مما اهتم به العلماء لأهميته في استجابة المدعو وقبوله للحق قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين- يرحمه الله-: (عالماً بأحوال من يدعوهم النفسية والعلمية، والعملية، ليستعد لهم ويسلك في دعوتهم ما يليق بأحوالهم. ولهذا لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له: (إنك ستأتي قوماً أهل كتاب) فأخبره بحال من بعث إليهم

(١) تقدم تخريجه ص 17.

(٢) فتح الباري ج 3 ص 419.

من أجل الغرضين السابقين، فإن الداعي إذا دعاهم وهو لا يعرف حالهم قد ينعكس عليه هدفه، وقد يبدأ بغير المهم وبغير الأهم ويترك ما هو أولى منه) (١).

ب. ترتيب الأولويات فيبدأ بالأهم فالمهم، فتقدم العقائد على غيرها من العبادات والأخلاق، ويدل على هذا الواقع العملي للدعوة الإسلامية في الصدر الأول حيث بدأت الدعوة بتأسيس العقائد ثم انتقلت إلى بيان الشريعة والأحكام (٢). وما ورد من تدرج في تبليغ الدعوة والبداية بالمهم في حديث معاذ رضي الله عنه ليس إلا إرشاداً نبوياً، بل تدبيراً إلهياً يتجاوز الحالة الخاصة في تحويل أهل الجاهلية من واقع جاهليتهم الباطلة إلى الحياة الإسلامية، وكل واقع بعيد عن الإسلام (٣).

ج. التدرج في تطبيق تلك الأولويات في معالجة الأشخاص والأوضاع العامة.

فالأولويات ترتب؛ وأيضاً لابد من التدرج في تطبيقها ويراعى في ذلك الأشخاص وكذلك الأوضاع العامة قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين- يرحمه الله-: (من الحكمة أن لا يجابه المدعو بإنكار ما هو عليه من باطل إذا كان ذلك يزيده نفوراً عن الحق وتوغلاً في المنكر، ولكن يذكر له الحق ويرغبه فيه حتى يتمكن من قلبه فيسهل عليه ترك ما ألفه من الباطل، فإن ترك المألوف صعب على النفوس وليس من السهل أن يدعه الإنسان إلا بمقاومة كبيرة، وانظر إلى حكمة الله في تشريع تحريم الخمر حين كان مألوفاً عند الناس فكان تحريمه على مراحل...) (٤).

---

(١) رسالة إلى الدعاة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ص 34 طبع مؤسسة آسام – الرياض – الأولى 1412هـ.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز ج 7 ص305 جمع د. محمد بن سعد الشويعر – رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء – الأولى 1421هـ؛ أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الأمة – الشيخ عبدالله بن حسن بن قعود ص 28 – طبع دار العاصمة – الأولى 1411هـ؛ صفات الداعية الناجح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان ص 31 إعداد عادل الفريدان طبع دار النجاح الأولى 1418هـ.

(٣) انظر: التدرج بين التشريع والدعوة – د. يوسف محي الدين أبو هلالة ص 26 طبع دار العاصمة – الأولى 1412هـ.

(٤) رسالة إلى الدعاة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ص 31.

وقد مر معنا قول شيخ الإسلام ابن تيمية-يرحمه الله- في معالجة دعوة المبتدئ كالتائب والمتعلم والمسترشد حيث ذكر أنه لا يمكن أن يعلم جميع ما يحتاجه من علم دفعة واحدة بل لابد من التدرج في ذلك، وأنه لا يطيق تعلم ذلك، وإذا كان لا يطيقه فلا يعتبر واجباً عليه فيعفى عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان وعد معرفة ذلك من الأصول النافعة (١).

الضابط الرابع: تحديد الأسلوب المناسب للدعوة:

أسلوب الدعوة بينه الله عز وجل في كتابه الكريم إرشاداً للنبي ﷺ والدعاة من بعده، قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (٢).

وجاءت هذه الآية شاملة بالأساليب التي تتبع مع كافة أصناف المدعوين، قال ابن القيم –يرحمه الله-: (جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يُدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يُدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة، والمعاند الجاحد يُجادل بالتي هي أحسن هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية) (٣).

وبالرجوع إلى أحاديث بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن نجد أنه حدد له أساليب الدعوة، من ذلك الوصية بحسن الخلق مع الناس فقد أخرج الإمام مالك في

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج 20 ص 60 جمع وترتيب الشيخ عبدالرحمن بن قاسم – لم يذكر الناشر وتاريخ النشر.

(٢) سورة النحل، آية: 125.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ج 1 ص 184 طبع دار الحديث – الأولى 1414هـ؛ وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج2 ص45.

الموطأ: (أن معاذ بن جبل قال: آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ حين وضعتُ رجلي في الغرز [1] أن قال: "أحسن خُلقك للناس يا معاذ بن جبل) [2].

فحسن الخلق من أفضل الأساليب في التعامل مع الناس؛ فالناس تميل بطبعها إلى من يتعامل معها بحسن خلق، وتنفر ممن يخاطبها بغلظة وجفاء.

ومن الأساليب التي أمر الله بها معاذاً وأبا موسى رضي الله عنهما أن يتبعاها في دعوتهما التيسير وعدم التعسير والتبشير وعدم التنفير، والدليل ما جاء في الصحيحين (أن النبي ﷺ بعث معاذاً وأبا موسى إلى اليمن قال: "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا") [3].

وذكر الإمام النووي- يرحمه الله- في شرحه لهذا الحديث لطائف جميلة حيث قال: (إنما جمع هذه الألفاظ بين الشيء وضده لأنه قد يفعلها في وقتين، فلو اقتصر على يسروا لصدق ذلك على من يسر مرة أو مرات، وعسر في معظم الحالات، فإذا قال (ولا تعسروا) انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب، وكذا قال في (بشرا ولا تنفرا)...

وفي هذا الحديث: الأمر بالتيسير بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد، محضة من غير ضمها إلى التبشير.

---

(١) الغرز: ركاب الرحل وقيل ركاب الرحل من جلود مخروزة (انظر: لسان العرب ج 5 ص226؛ النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين المبارك محمد الجزري ابن الأثير ج3 ص359 طبع دار الفكر.

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ – كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق حديث رقم (1 ج2، ص902 تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي وقد قال عن هذا الحديث: (هذا آخر الأحاديث الأربعة التي قالوا إنها لم توجد موصولة في غير الموطأ وذلك لا يضر مالكاً الذي قال فيه سفيان بن عينية: كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا ما كان صحيحاً وإذا قال (بلغني) فهو إسناد صحيح (انظر: الموطأ ج 2 ص902 طبع دار الدعوة – دار سحنون – الثانية 1413هـ).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب ما يكره من التنازع ج 4 ص26؛ ومسلم في كتاب الجهاد والسير باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير حديث رقم (7 – 1733) ج2 ص1359.

وفيه: تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليهم، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ ومن تاب من المعاصي كلهم يتلطف بهم ويدرجون في أنواع الطاعة قليلاً قليلاً.

وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج، فمتى يسر على الداخل في الطاعة أو المريد للدخول فيها سهلت عليه، وكانت عاقبته غالباً التزايد فيها، ومتى عسرت عليه أوشك ألا يدخل فيها، وإن دخل أوشك ألا يدوم أو لا يستحليها...) (١).

وأشار إلى المعنى نفسه الإمام ابن حجر- يرحمه الله- عند شرحه للحديث حيث قال: (والمراد تأليف من قرب إسلامه، وترك التشديد عليه في الابتداء، وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف ليقبل، وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج، لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط. وكانت عاقبته غالباً الازدياد بخلاف ضده) (٢).

فانظر إلى فهم علماء السلف لمفهوم التيسير، وعدم التنفير، في أسلوب التعامل مع المدعوين وسار على ذلك الخلف في الفهم، وممن فصل في ذلك من العلماء المعاصرين الشيخ محمد بن صالح العثيمين- يرحمه الله- مبيناً كيف يكون أسلوب التعامل مع المدعو في التيسير والتعسير؛ حيث قال: (ولهذا يجب أن لا نجعل المقياس في الشدة واللين هو ما تمليه علينا أهواؤنا وأذواقنا، بل يجب أن نجعل المقياس هدي النبي ﷺ وهدي أصحابه رضي الله عنهم، والنبي ﷺ رسم لنا هذا بقوله وفعله وبحاله ﷺ رسمه لنا رسماً بيناً فإذا دار الأمر بين أن اشتد أو أتيسر بمعنى أنني كنت في موقف حرج لا أدري الفائدة في الشدة أم الفائدة في التيسير والتسهيل فأيهما أسلك؟ أسلك طريق التيسير لأن النبي ﷺ قال: (إن الدين يسر) (٣).

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم الإمام النووي – ج6 ص284 تحقيق عصام الصبابطي – حازم محمد – عماد عامر - طبع دار أبي حيان – الأولى 1415هـ.

(٢) فتح الباري ج1 ص 197.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين يسر ج1 ص 15.

ولما بعث معاذاً وأبا موسى الأشعري إلى اليمن، قال: (يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا) [1] ومن أراد أن يفهم هذا الأمر فليجرب، لأنك إذا قابلت المدعو بالشدة اشمأز ونفر وقابلك بشدة مثلها، وإن كان طالب علم ذهب يجادلك حتى بالباطل الذي تراه مثل الشمس وهو يراه مثل الشمس ولكنه يأبى إلا أن ينتصر لنفسه لأنه لم يجد منك رفقاً ولياناً [2].

الضابط الخامس: تحديد إطار زمني لتحقيق الهدف:

فمن ضوابط التخطيط والعمل، تحديد إطار زمني لتحقيق الهدف، فعند وضع الخطة يتم تقسيمها على مراحل، وفي كل مرحلة من مراحل العمل، يراجع هذه الخطة ليرى مدى نجاح خطته.

وبالنظر إلى دعوة النبي ﷺ نجدها مقسمة إلى أدوار ومراحل، وكل دور ومرحلة لها ما يميزها حيث تم التخطيط لها، وتنفيذ هذه الخطة في الفترة الزمنية المحددة، ويمكن من خلال استقراء سيرته النبوية ﷺ تقسيم مراحل الدعوة كالتالي كما بين ذلك كتاب السير، فابن القيم في زاد المعاد قسم الدعوة وجعلها مراتب حسب من وجهت إليه الدعوة:

المرتبة الأولى: النبوة.

المرتبة الثانية: إنذار عشيرته الأقربين.

المرتبة الثالثة: إنذار قومه.

المرتبة الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة.

المرتبة الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر [3].

---

(١) تقدم تخريجه ص30 .

(٢) الاعتدال في الدعوة – الشيخ محمد بن صالح العثيمين – إعداد فهد بن ناصر السليمان ص 13 طبع دار الثريا – الأولى 1415هـ.

(٣) انظر: زاد المعاد لابن قيم الجوزية ج1 ص 86.

أما المباركفوري فقد قسمها كالتالي [1]:

إلى دورين مكي ومدني ثم كل دور إلى مراحل:

أولاً: الدور المكي: ثلاث عشرة سنة تقريباً.

ثانياً: الدور المدني: عشر سنوات كاملة.

ثم يشتمل كل من الدورين على مراحل لكل منها خصائص تمتاز بها عن غيرها.

أولاً: دور الدعوة المكية:

ويمكن تقسيم الدور المكي إلى ثلاث مراحل:

1 – مرحلة الدعوة السرية، ثلاث سنين:

إذ في هذه المرحلة عرض النبي ﷺ الإسلام على أقرب الناس إليه من آل بيته، وأصدقائه وكان إسلام هؤلاء سراً إذ كانت ظروف تلك المرحلة تستدعي أخذ الحيطة والحذر، فكان ذلك من الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله عز وجل، وهذا تعليم للدعاة في كل زمان ومكان وإرشاد لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة [2].

2 – مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى أواخر السنة العاشرة:

وذلك بعد أمر الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بالإنذار بقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [3].

وقد أخرج الإمام أحمد عن علي قال: (لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ قال: جمع النبي ﷺ أهل بيته، فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا،

(١) انظر: الرحيق المختوم – صفي الرحمن المباركفوري – ص86 طبع دار الوفاء – مصر – 1408هـ.

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية – مهدي رزق الله ص161.

(٣) سورة الشعراء، آية: 214.

قال: فقال لهم: من يضمن عني دَيْني ومواعيدي ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي؟...) [1].

3 – مرحلة الدعوة خارج مكة وفُشُوُّها فيهم، من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة:

وفي هذه المرحلة بدأ النبي ﷺ بالبحث عن ملجأ آمن للدعوة الإسلامية، وللمسلمين، بعد مضايقة كفار قريش لهم، فذهب إلى الطائف ليعرض عليهم الإسلام وطلب الإيواء فلم يجيبوه [2] وقد عرض الإسلام على القبائل التي كانت في طريقه؛ وكذلك استغل رسول الله ﷺ موسم الحج وأسواق العرب ليعرض الإسلام على القبائل [3] من أجل تبليغ دين الله الذي أمر بتبليغه لعله يجد ملاذاً آمناً يستطيع فيه من الدعوة بحرية.

ثانياً: دور الدعوة المدنية:

1 – المرحلة الأولى: بداية الهجرة إلى المدينة وبناء المجتمع الإسلامي:

وكانت الهجرة إيذاناً ببداية مرحلة جديدة يكون فيها المسلمون قد استقلوا بكيانهم، وأول أولويات هذا الاستقلال بناء مجتمع جديد، ولذا يصبح فرض على كل مسلم قادر المساهمة في بناء هذا الوطن الجديد، وقد امتاز هذا الدور عن الدور المكي أن في المدينة كان أمر المسلمين بأيديهم منذ أول يوم خلافاً لمكة، ولا يخفى أن تكوين أي مجتمع على نمط فريد كما يريده الله تعالى يحتاج إلى زمن طويل يتكامل فيه التشريع والتقنين مع التثقيف والتدريب والتربية تدريجياً [4].

2 – المرحلة الثانية: مرحلة انتشار الإسلام وإنذار كافة الناس:

---

(١) أخرجه الإمام في المسند انظر المسند بتحقيق الشيخ أحمد شاكر حديث رقم (883) وقد قال عنه (حديث حسن) ج2 ص165 طبع دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة 1373هـ.

(٢) انظر: الرحيق المختوم ص148.

(٣) انظر: المرجع السابق ص153؛ وانظر السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية لمهدي زرق الله ص241.

(٤) انظر: المرجع السابق ص209.

وقد حددها ابن القيم – يرحمه الله–بالمرتبة الرابعة وفي هذه المرحلة أتيحت الفرصة للنبي ﷺ بتوسيع نطاق الدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها، وذلك بعد صلح الحديبية، إذ كان ذلك بداية طور جديد بعد انسحاب قريش عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام [1] مما جعل الرسول ﷺ يبعث بالرسائل إلى ملوك العالم وأمراء القبائل يدعوهم فيها إلى دين الإسلام إذ أنه رسول لكل الناس كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ [2].

(١) انظر: الرحيق المختوم ص412؛ السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية مهدي زرق الله ص513.

(٢) سورة سبأ، آية: 28.

المطلب الثاني

ضوابط شرعية في تقديم الأولويات عند التزاحم

المقصود بالتزاحم لغة: زحم زحمه كمنعه يزحمُهُ زَحْماً، وزحاماً بالكسر أي ضايقه وازدحم القوم وتزاحموا: تضايقوا (١).

وازدحموا وتزاحموا: تضايقوا وزحمتُهُ وزاحمتُهُ، والأمواج تزدحم وتتزاحم تلتطم (٢).

التزاحم اصطلاحاً: (هو التصادم بين حكمين شرعيين في الواقع العملي على نحو يعجز معه المكلف من الجمع بينهما، فيضطر إلى اختيار أحدهما وإعطائه الأولوية التنفيذية) (٣).

وهناك عدد من الضوابط في تقديم الأولويات عند التزاحم منها:

الضابط الأول: إذا تزاحمت مصلحتان تُقَدَّم الأكثر مصلحة على الأقل مصلحة (٤).

قال شيخ الإسلام بن تيمية- يرحمه الله-: (إن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأنها ترجح خير الخيرين وشر الشرين، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما) (٥).

فعندما تتزاحم مصلحتان وتتعارضان فلابد أن يدرك الداعية أنها تتفاضل فيقدم ما حقه التقديم وله الأولوية.

قال ابن القيم-يرحمه الله-: (فإذا عارض تلك المصلحة مصلحة أخرى أعظم منها كان ما اشتملت عليه أولى بالخلق والأمر ويبقى في الأولى ما شاء من الوجه الذي يتضمن المصلحة ويكون هذا من باب تزاحم المصالح، والقاعدة فيها شرعاً

---

(١) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ج16 ص313.

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور الأفريقي ج3 ص175؛ القاموس المحيط ص 1443.

(٣) فقه الأولويات محمد الوكيلي ص 198.

(٤) انظر: موسوعة القواعد الفقهية للدكتور محمد صدقي البورنو، ج 4 ص344 طبع مؤسسة الرسالة الأولى -1424هـ.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج20 ص48.

وخلقاً تحصيلها واجتماعها بحسب الإمكان فإن تعذر قدمت المصلحة العظمى وإن فاتت الصغرى)[١].

والمصالح ليست سواء، فبعضها أكبر من بعض، وهناك منفعة يتعين تحصيلها والأخرى على التراخي، ولذلك تقدم الأصلح منها والأنفع. وقال ابن القيم-يرحمه الله- أيضاً: (وإذا تأملت شرائع دينه التي وضعها بين عباده، وجدتها لا تخرج عن تحصيل المصالح الخالصة، أو الراجحة الإمكان، وإن تزاحمت قدم أهمها، وأجلها، وإن فاتت أدناهما)[٢].

وقال العز بن عبد السلام-يرحمه الله-: (إذا تعارضت مصلحتان، وتعذر جمعهما، فإن علم رجحان أحدهما قدمت، وإن لم يعلم الرجحان فإن علم التساوي تخيرنا، وإن لم يعلم التساوي فقد يظهر لبعض العلماء رجحان إحداهما فيقدمها، ويظن آخر رجحان مقابلها فيقدمه)[٣].

فقد تستوي مصلحة الفعلين من كل وجه، فيوجب الله سبحانه وتعالى تحصيل إحدى المصلحتين، نظراً لمن أوجبها له، أو عليه، ويجعل الأجر على التي أوجبها أتم من أجر التي لم يوجبها، فإن درهم النفل مساوٍ لدرهم الزكاة لكن الله سبحانه وتعالى أوجب درهم الزكاة، لأنه لو لم يوجبه لتقاعد الأغنياء عن بر الفقراء، فتهلك الفقراء، وجعل الأجر عليه أكثر من الأجر على غيره ترغيباً في التزامه، والقيام به)[٤].

وبين شيخ الإسلام ابن تيمية -يرحمه الله-أنه إذا تعارض واجبان لا يمكن جمعهما يقدم الأوكد منهما، ولم يكن الآخر في هذه الحال واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تاركاً واجب في الحقيقة[٥].

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن قيم الجوزية ج2 ص384

(٢) المرجع السابق ج2 ص373.

(٣) قواعد الأحكام في إصلاح الأنام – عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام ج 1 ص87 تحقيق – د. نزيه حماد – د. عثمان جمعة ضميرية – طبع دار القلم – دمشق.

(٤) انظر: المرجع السابق ج1 ص 42.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج20 ص 57.

ومن الأمثلة على ذلك:

تأخير وجوب فرائض الإسلام كالصلاة التي لم تفرض إلا ليلة الإسراء وكذلك الصيام والزكاة ففي فعلها والأمر بها مصلحة، ولكن تعارضها مصلحة أخرى هي عدم نفور المسلم حديثاً من الإسلام إذ ربما تثقل عليه [١].

الضابط الثاني: إذا تزاحمت مفسدتان يقدم الأقل مفسدة على الأكثر مفسدة [٢]:

فإذا تعارضت مفسدتان رُوعي أعظمها ضرراً بارتكاب أخفهما [٣].

والمفاسد تدخل في دائرة المنهيات فالأولى بالمسلم عموماً والداعية إلى الله خصوصاً أن يحذر من المفاسد كلها كبيرها وصغيرها ورذيلها والأرذل، إلا أنه في بعض الحالات قد يضطر إلى ارتكاب بعض المفاسد كي يتجنب البعض الآخر وفي مثل هذه الحالة يرتكب المفسدة الأقل فهذا هو المعتبر في قياس الشرع [٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية-يرحمه الله-: (وإما بين سيئتين لا يمكن الخلو منهما، فيدع أسوأهما باحتمال أدناهما) [٥].

بل إنه لم يعتبر من يرتكب المفسدة الصغرى مضطراً إليها، فاعلاً لمحرم حيث قال: (إذا اجتمع محرمان، لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرماً في الحقيقة) [٦].

ومثال تقديم المفسدة الصغرى دفعاً للكبرى باعتبار النظر إلى حكمها، أن الداعية قد يغضّ الطرف عما يحصل من منكرات صغيرة، ومكروهات شرعية، خشية أن يقع في منكرات أكبر، أو محرمات. من ذلك الإنكار على الملوك والولاة بالخروج

---

(١) ينظر: قواعد الأحكام للعز بن عبدالسلام ج1 ص 91.

(٢) انظر: موسوعة القواعد الفقهية د. محمد صدقي البورنو ج1 ص229.

(٣) انظر: المرجع السابق ج1 ص229.

(٤) انظر: المرجع السابق ج1 ص 230.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج20 ص51.

(٦) المرجع السابق ج20 ص57.

عليهم، فإنه أساس كل شر وفتنة [1] إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ فقال لا، ما أقاموا الصلاة) [2].

قال النووي-يرحمه الله- في معنى هذه الأحاديث: (ففيه معنى أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم، أو الفسق، ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الإسلام) [3].

وضرب الإمام ابن القيم -يرحمه الله-أمثلة أخرى لذلك حيث قال: (فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج، كان إنكارك عليهم من عدم الفقه، والبصيرة، إلا إذا نقلتهم إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله ﷺ... وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو، ولعب، أو سماع مكاء وتصدية، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة، فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك.. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم) [4].

---

(١) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية ج 3 ص12 طبع دار الكتب العلمية بيروت 1417هـ؛ وينظر الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ص 215. تحقيق د. محمد رشاد سالم – طبع جامعة الإمام 1411هـ.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الأمراء، باب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك حديث رقم (1854) ج2 ص1480 – 1481.

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم، ج6 ص486.

(٤) إعلام الموقعين ج 3 ص12 – 13؛ وينظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ج 8 ص655. جمع وترتيب فهد بن ناصر السليمان – طبع دار الثريا – الثانية 1417هـ.

الضابط الثالث: إذا تعارضت المصالح والمفاسد يجب ترجيح الراجح منها[1]:

إذا تعارضت المصالح والمفاسد أو تزاحمت يجب ترجيح الراجح منها واعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة [2].

فإذا كان الأمر والنهي متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة يُنظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأموراً به، بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –يرحمه الله-: (معلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد من أعظم المعروف الذي أمرنا به، ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعرف ونهيك عن المنكر غير منكر.. لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة؛ إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب والله لا يحب الفساد.. فحيث كانت مفسدة الأمر و النهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم) [3].

وإذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما بل إما أن يفعلوهما جميعاً أو يتركوهما جميعاً لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر قال شيخ الإسلام ابن تيمية- يرحمه الله-: (وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما) [4].

وإذا كان المعروف أكثر أمر به، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعي وفي زوال طاعته، وطاعة رسوله ﷺ، وزوال فعل الحسنات، وإن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج 28 ص129؛ الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ج 2 ص216.

(٢) انظر: الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج2 ص217.

(٣) مجموع الفتاوى ج28 ص126.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج 28 ص129- 130؛ الاستقامة لشيخ الإسلام ج 2 ص216.

كان المنكر أغلب نهى عنه، وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر وسعياً في معصية الله ورسوله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-يرحمه الله-: (وعند التعارض يرجح الراجح... بحسب الإمكان، فأما إذا كان المأمور والمنهي لا يتقيد بالممكن إما لجهله، وإما لظلمه، ولا يمكن إزالة جهله وظلمه، فربما كان الأصلح الكف والإمساك عن أمره ونهيه كما قيل: إن من المسائل مسائل جوابها السكوت، كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء والنهي عن أشياء حتى علا الإسلام وظهر) (١).

ومن الأمثلة على ذلك أن رسول الله ﷺ كان يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، لأن مفسدة التغيير أكبر من مصلحتها من مفسدة القضاء على الإسلام وأهله في فترة ضعفهم، بل لما فتح مكة، وصارت مكة دار الإسلام عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر (٢) ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: (لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام فإن قريشاً استقصرت بناءه (٣) وجعلت له خَلفاً)(٤).

قال النووي عند شرحه لهذا الحديث: (وفي هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام: إذا تعارضت المصالح أو تعارضت مصلحة ومفسدة وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدء بالأهم؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن نقض الكعبة وردها إلى ما

(١) مجموع الفتاوى ابن تيمية ج20 ص59.

(٢) انظر: إعلام الموقعين ج3 ص12.

(٣) (استقصرت بناءه): أي قصرت عن تمام بنائها لقصور النفقة بهم (انظر: شرح النووي ج5 ص102).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها ج 2 ص156؛ ومسلم في كتاب الحج باب نقض الكعبة وبنائها حديث رقم (398) – (1333) ج 1 ص 968.

كانت عليه من قواعد إبراهيم ﷺ مصلحة، ولكن تعارضه مفسدة أعظم منه، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريباً، وذلك لما كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة فيرون تغييرها عظيماً، فتركها ﷺ) (١).

ومن ذلك إقرار النبي ﷺ لعبدالله بن أبي وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان، فإزالة منكرة بنوع من عقابه يستلزم إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم، وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه (٢).

الضابط الرابع: تقديم الأصول على الفروع والفرائض على النفل (٣):

لقد جاءت دعوة الإسلام بالتدرج، والبدء بالأهم فالأهم، وتقديم الأصول على الفروع دليل على ذلك حديث النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان) (٤)

وعند مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما بعد روايته الحديث (قال رجل: الحج وصيام رمضان؟ قال صيام رمضان والحج هكذا سمعته من رسول الله ﷺ) (٥).

قال النووي: (هذا الحديث أصل عظيم في معرفة الدين وعليه اعتماده وقد جمع أركانه) (٦).

فالشهادة هي أول أركان الإسلام والركن ما لا يتم البناء إلا به، وركن الشهادتين هو أصل الأركان الباقية وهو أعظمها، وكل أركان الإسلام عظيمة وإنما الشهادتين أعظمها لأنها كلمة تابعة له فهي الأصل، ولا يدخل العبد في شيء من

---

(١) شرح النووي ج5 ص 102.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ج 28 ص131.

(٣) انظر: موسوعة القواعد الفقهية ج 7 ص24.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بني الإسلام على خمس ج 1 ص8؛ وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام حديث رقم (19 / 16) ج1 ص45.

(٥) انظر الحديث عند مسلم كتاب الإيمان باب بيان أركان الإسلام حديث رقم (19 / 16) ج1 ص45.

(٦) شرح النووي ج 1 ص 212.

الشريعة إلا به، ولهذا لم يدعُ الرسول ﷺ إلى شيء قبلها ولم يقبل الله تعالى ولا رسوله ﷺ من أحد شيئاً دونهما، فبالشهادة الأولى يعرف المعبود وما يجب له، وبالثانية يعرف كيف يعبده، وبأي طريق يصل إليه، وكيف يؤمن بالعبادة أحد قبل تعريفه بالمعبود، وكيف يؤديها من لم يعرف كيف أمر الله أن يعبد (١).

وقد دل حديث بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن على هذه القاعدة التي دل عليها أيضاً التطبيق العملي لدعوة النبي ﷺ ففي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب) (٢).

ففي هذا الحديث بيان إلى أنه يجب تقديم الأصول على الفروع قال ابن حجر (بدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب لأنه لو طالبهم بالجميع في أول الأمر لم يأمن النفرة) (٣).

وقال الإمام النووي في شرح الحديث: (لأنه ﷺ رتب ذلك في الدعاء إلى الإسلام وبدأ بالأهم فالأهم) (٤).

ومن القواعد الفقهية أن الفرض أفضل من النفل ودليل هذه القاعدة (وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه...) (٥).

---

(١) انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد – الشيخ حافظ أحمد الحكمي ج 2 ص 46 – 47 – طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

(٢) تقدم تخريجه في ص 17.

(٣) فتح الباري ج 3 ص421.

(٤) شرح النووي ج 1 ص230.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب التواضع ج 7 ص190.

قال ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: (الفرض كالأصل والأس، والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الآمر وتعظيمه بالانقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية، فكان التقرب بذلك أعظم العمل) [1].

ولهذا يجب ترتيب الأولويات حسب مجتمع الدعوة فلا يبدأ الداعية بغير المهم، كأن يكون لدى مجتمع المدعوين مخالفات عقدية وشركية أو تضييع فرائض فيبدأ بترغيبهم بنوافل الأعمال.

وهذا الضابط مما اعتنى بذكره العلماء. من هؤلاء الإمام ابن الجوزي حيث قال: (رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة ولا يتحاشون من غيبة، ويكثرون من الصدقة، ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت، في أشياء يطول عددها من حفظ فرع وتضييع أصول) [2].

وقد ذكر الإمام ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين العقبات التي يضعها الشيطان عدو الإنسان في طريقه للحيلولة دون وصوله إلى الطريق المستقيم، وهي عقبات سبع بدأها بعقبة الكفر ثم البدعة ثم الكبائر ثم عقبة الصغائر، ثم عقبة الإكثار من المباحات ثم عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة على الفاضلة فأمره بها وحسَّنها في عينه وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله فشغله بالمفضول عن الفاضل وبالمرجوح عن الراجح [3].

الضابط الخامس: العمل متعدي النفع أولى من القاصر [4]:

---

(١) فتح الباري ج 11 ص351.

(٢) صيد الخاطر للإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ص 224 تحقيق محمد عبدالرحمن عوض، طبع دار الكتاب العربي – الثانية 1407هـ.

(٣) انظر: مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين" للإمام ابن قيم الجوزية ج 1 ص239 – 240 تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي طبع دار الكتاب العربي - 1414هـ.

(٤) انظر: قواعد الأحكام للعز بن عبدالسلام ج 4 ص 394.

العبادة إما أن يكون نفعها قاصراً على صاحبها كصيام النافلة وصلاة النافلة، والحج وتسمى عبادة قاصرة حيث إن نفعها قاصر على صاحبها فقط، وإما أن يكون نفعها متعدياً إلى الغير كتقديم خدمة، وسد حاجة محتاج، وتسمى عبادة متعدية والفرق بينهما أن العبادة القاصرة ينتفع بها صاحبها فهو محسن إلى نفسه بتعريضها للثواب قائم بحقها وبحق ربه في طاعته كما قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ (١).

أما العبادة المتعدية فهو محسن إلى نفسه ومحسن إلى غيره قد قام بحق نفسه، وحق ربه وحق من تعدى إليه ذلك النفع (٢) وقال في قواعد الأحكام: (كل مطيع لله محسن إلى نفسه، فإن كان إحسانه متعدياً إلى غيره تعدد أجره بتعدد من تعلق به إحسانه، وكان أجره على ذلك مختلفاً باختلاف ما تسبب إليه من جلب المصالح ودرء المفاسد) (٣).

وقد جاء في السنة النبوية ما يدل على ذلك؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً) (٤).

قال النووي-يرحمه الله-: (أن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه أو إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه. سواء كان ذلك الهدى والضلالة هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقاً إليه، وسواء كان ذلك تعليم علم أو عبادة أو أدب أو غير ذلك) (٥).

---

(١) سورة فصلت، آية: 46.

(٢) انظر: المرجع السابق ج 2 ص394.

(٣) المرجع السابق ج 2 ص 394.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة حديث رقم (16 -2674) ج3 ص2059.

(٥) شرح النووي ج 8 ص480.

فمن الأولويات الدعوية التي ينبغي للداعية أن يضعها نصب عينيه عند ترجيحه بين الأعمال التي يقوم بها ويدعو إليها خاصة عند تعارضها وضيق الوقت عليه، أن ينظر في اعتبار النفع وتعديه، وليس المقصود بذلك الأصول الكبرى كأركان الإسلام وأصول الإيمان، ولكن ذلك في عموم العبادات والأعمال الصالحة متعدية النفع للآخرين [١].

والطاعة والمعصية تعظم بحسب عظم المصلحة أو المفسدة قال الشاطبي-يرحمه الله-: (المفهوم من وضع الشارع أن الطاعة أو المعصية تعظم بحسب عظم المصلحة أو المفسدة الناشئة عنها) [٢].

الضابط السادس: العمل المستمر أو الدائم أفضل من المنقطع [٣]:

من الاعتبارات الشرعية في التفاضل بين العبادات وتقديم الأولى الذي يستحق التقديم اعتبار الاستمرار والديمومة قال الشاطبي (من مقصود الشارع في الأعمال دوام المكلف عليها)[٤] لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ۝٢٣ ﴾ [٥] قال ابن كثير-يرحمه الله- في تفسير هذه الآية: (قيل المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه)[٦] وقد دلت السنة المطهرة على ذلك؛ منه ما جاء عن عائشة رضي الله عنها (أن (أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة فقال من هذه قالت فلانة تذكر من صلاتها. قال: مه. عليكم بما تطيقون فوالله لا يملُّ الله حتى تملوا وكان أحب الدِّين ما داوم عليه صاحبه) [٧].

---

(١) انظر فقه الأولويات للشنقيطي ص 546.

(٢) الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي ج 2 ص 227. طبع دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى 1422هـ.

(٣) انظر: الموافقات للشاطبي ج 2 ص 184.

(٤) المرجع السابق ج 2 ص184.

(٥) سورة المعارج، آية: 22 – 23.

(٦) تفسير القرآن العظيم ج 4 ص422.

(٧) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب أحب الدين إلى الله أدومه ج 1 ص 16.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (سئل النبي ﷺ أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله قال: "أدومها وإن قل") [1].

وقد بينت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كيفية عمل النبي ﷺ فقد أخرج البخاري عن إبراهيم بن علقمة قال: (سألت أم المؤمنين عائشة قلت يا أم المؤمنين كيف كان عمل النبي ﷺ هل كان يختص شيئاً من الأيام قالت: كان عمله ديمة، وأيكم يستطيع ما كان النبي ﷺ يستطيع) [2].

قال ابن حجر-يرحمه الله- في شرح أحاديث باب (القصد والمداومة على العمل): (أي الصالح، ذكر فيه ثمانية أحاديث أكثرها مكرر، وفي بعضها زيادة على بعض ومحصل ما اشتملت عليه الحث على مداومة العمل الصالح وإن قل) [3].

وقال النووي-يرحمه الله-: (وفيه الحث على المداومة على العمل وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خيراً من الكثير المنقطع، لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة، والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويثمر القليل الدائم، بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة) [4].

وقد ذكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عمل النبي ﷺ وآله حيث قالت (وكان آل محمد إذا عملوا عملاً أثبتوه) [5].

قال النووي-يرحمه الله- في معنى قول عائشة رضي الله عنها: (أي لازموه وداوموا عليه، والظاهر أن المراد بالآل هنا أهل بيته وخواصه ﷺ من أزواجه وقرابته ونحوهم) [6].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل ج 7 ص182 واللفظ للبخاري وعند مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره حديث (216 – 782) ج1 ص540.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل الصالح ج 7 ص 182.

(٣) فتح الباري ج 11 ص301.

(٤) شرح النووي ج 3 ص 331.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم حديث رقم (215 – 782) ج1 ص 541.

(٦) شرح النووي ج 3 ص331.

المبحث الثالث

نماذج وأمثلة من فقه الأولويات من السيرة النبوية وحياة السلف الصالح والدعاة المعاصرين

المبحث الثالث

نماذج وأمثلة من فقه الأولويات من السيرة النبوية وحياة السلف الصالح والدعاة المعاصرين

فقه الأولويات في السيرة النبوية الشريفة:

لقد كانت حياة النبي ﷺ ودعوته تسير وفق وحي إلهي يوجهه ويرعاه قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ (١).

فقوله تعالى: (إن اتبع إلا ما يوحى إليَّ) قال الطبري في تفسير هذه الآية: (قل لهم ما أتبع فيما آمركم به، وفيما أفعله من فعل إلا وحي الله الذي يوحيه إليَّ) (٢).

وسيرته ﷺ إجمالاً فيها دلالة واضحة على مراعاة الأولويات، وسوف أجملها بعدد من الجوانب ليسهل الإحاطة بها:

الجانب الأول: مراعاة الأولويات في عرض الدعوة. من حيث التدرج الزمني مراعاة للظروف التي تمر بها الدعوة.

الجانب الثاني: مراعاة الأولويات في عرض الدعوة بتقديم الأقرب فالأقرب مكانة وقرابة من رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الإسلام.

الجانب الثالث: مراعاة الأولويات في تنزيل الأحكام الشرعية وعرضها للناس مراعاة لظروف المدعوين.

الجانب الأول: مراعاة الأوليات في عرض الدعوة من حيث التدرج الزمني:

فنجد أن الدعوة مرت بمراحل عديدة كل مرحلة تناسب الظروف المحيطة بالنبي ﷺ والمسلمين ومراحل الدعوة سبق بيانها (٣).

---

(١) سورة الأحقاف، آية: 9.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ج 13 ص 8؛ طبع دار الفكر بيروت، 1405هـ ؛ وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج4 ص 158.

(٣) انظر ص 32.

الجانب الثاني: مراعاة الأولويات في عرض الدعوة بدعوة الأقرب فالأقرب إلى الإسلام:

ذكر ابن القيم مراتب الدعوة فقال: (المرتبة الأولى: النبوة، الثانية: إنذار عشيرته الأقربين. الثالثة: إنذار قومه. الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة. الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر) [1].

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: (قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [2]. قال: يا معشر أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبدمناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً) [3].

في هذا الحديث تدرج النبي ﷺ في دعوته تجاه الناس فبدأ بالأقرب فالأقرب من أقاربه، وقومه، ثم إلى العرب كافة، ثم إنذار جميع من بلغته دعوته من الإنس والجن، وقد بين ابن حجر في شرح الحديث فائدة التدرج في استجابة الناس. فاستجابة المقربين أدعى لاستجابة الأبعدين، وعكس ذلك فإن امتناعهم علَّة لامتناع الآخرين قال ابن حجر: (في الأمر بإنذار الأقربين أولاً أن الحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم، وإلا فكانوا علة للأبعدين في الامتناع وأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة فيحابيهم في الدعوة والتخويف، فلذلك نص على إنذارهم) [4].

الجانب الثالث: مراعاة الأولويات في تنزيل وعرض الأحكام الشرعية حيث أنها تدرجت مراعاة لظروف الناس.

---

(١) زاد المعاد ج 1 ص76؛ وانظر مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبدالوهاب ص81.

(٢) سورة الشعراء، آية: 214.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة الشعراء باب ولا تخزني يوم يبعثون ج 6 ص16؛ ومسلم في كتاب الإيمان باب في قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين) حديث رقم (351 – 206) ج1 ص192.

(٤) فتح الباري ج 8 ص362.

ويمكن تقسيم ذلك إلى قسمين:

القسم الأول:

التدرج في تشريع الأحكام (تنزيل الأحكام) مراعاة لفقه الأولويات.

لقد اقتضت حكمة المولى عز وجل، العالم البصير بعباده، أن تتنزل الأحكام بالتدرج مراعاة لنفوس المسلمين، فلم تنزل الأحكام دفعة واحدة، بل كانت بالتدرج، بل إن بعض الأحكام الشرعية في وجوبها أو تحريمها نزلت على مراحل حتى يستطيع المسلمون من الالتزام بها فعلاً أو تركاً، ويكون بمثابة التدريب حتى تتهيأ النفوس لقبوله، والعمل به، كما أمر الله تعالى.

ومن الأمثلة على ذلك:

تحريم الخمر حيث كان مألوفاً عند الناس اعتادوا على شربه ومن أجل تحريمه جاء تحريمه على مراحل:

المرحلة الأولى: قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [1].

ففي الآية الكريمة ذكر أن في الخمر منافع، وليست منفعة واحدة فقط، ليشمل كل ما يكون أو يتصور من منفعة، ولكن هذه المنافع تتصاغر في جانب الإثم الكبير فيه، وفي هذا إشارة وتلميح إلى أنه سيأتي تحريمه، فإن قاعدة الشريعة أن ما ترجحت مضرته على منفعته كان حراماً، فتستشعر النفوس بأنه سيُحَرَّم فإذا جاء التحريم صادف أنفساً مستعدة لذلك فسهل عليها قبولها.

المرحلة الثانية: المنع من أداء الصلاة في حال السكر: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [2].

---

(١) سورة البقرة، آية: 219.

(٢) سورة النساء، آية: 43.

فمنع المسلم من الصلاة وهو سكران سيجعله يعتاد الامتناع عنه بعض الوقت مما يسهل عليه الامتناع الكلي فيما بعد.

والمرحلة الثالثة: المنع منه في جميع الأوقات والأحوال في قوله تعالى في سورة المائدة وهي من آخر ما نزل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [1].

فانتهى المسلمون عن ذلك بكل يسر وسهولة بعد تلك التمهيدات لتحريمه[2].

القسم الثاني:

التدرج في عرض الدعوة بحيث يبدأ بعرض موضوع الدعوة الأهم، فالأهم كما دل على ذلك حديث بعث معاذ إلى اليمن، الذي سبق بيانه، وكما يدل عليه أيضاً حديث عبادة بن الصامت حيث جاء في الصحيحين: (أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهد بدراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف...) [3].

وقد بين ابن حجر حكمة في هذا الحديث؛ وهي أن الحديث نص على ذكر كثير من المنهيات ولم يذكر المأمورات، وذلك أن الكف أيسر من إنشاء الفعل، لأن اجتناب المفاسد مقدم على اجتلاب المصالح، والتخلي عن الرذائل قبل التحلي بالفضائل [4] وهذا يدل على فقه الأولويات حيث بدأ الدعوة بالأولى حيث بدأ بأكبر المنهيات وهو الشرك بالله عز وجل ثم تدرج في ذكر المنهيات.

---

(١) سورة المائدة، آية: 90.

(٢) انظر: رسالة إلى الدعاة الشيخ محمد العثيمين ص 31 – 33.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب 11 ج1 ص10؛ وأخرجه مسلم في كتاب الحدود باب الحدود كفارات لأهلها حديث رقم (41 – 1709) ج2 ص1333 واللفظ للبخاري.

(٤) انظر: فتح الباري ج 1 ص 83.

وقد بينت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الحكمة في ترتيب نزول القرآن وهو التدرج في الدعوة مراعاة للأولويات فقالت رضي الله عنها فيما أخرجه البخاري: (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء "لا تشربوا الخمر" لقالوا لا ندع الخمر أبداً ولو نزل "لا تزنوا" لقالوا: لا ندع الزنا أبداً) [1].

قال ابن حجر في بيان قول عائشة رضي الله عنها: (أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة وللكافر والعاصي بالنار فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام ولهذا قالت: (ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها) وذلك لما طبعت عليه النفوس عن ترك المألوف) [2].

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن ج 6 ص101.

(٢) فتح الباري ج 8 ص657.

نماذج وأمثلة من فقه الأولويات في حياة السلف الصالح والدعاة المعاصرين:

سأقوم بعرض بعض النماذج لفقه الأولويات لدى السلف بدءاً من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، ثم أثني ببعض العلماء البارزين من علماء السلف، ثم الدعاة المعاصرين.

فقه الأولويات عند خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

سأعرض لنموذج واحد لفقه الأولويات عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو إنفاذ جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما، حيث كان النبي ﷺ قد جهز جيشاً لغزو الروم بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنهما، فلما مرض النبي ﷺ توقف الجيش ولما توفي ﷺ حاول الصحابة وفيهم عمر رضي الله عنه ثني أبي بكر – رضي الله عنه – عن إنفاذ جيش أسامة نظراً للظروف التي يمرون بها من فقد النبي ﷺ، وارتداد بعض القبائل عن الإسلام فقد جاء في تاريخ الأمم والملوك للطبري: (عن هشام بن عروة عن أبيه قال: لما بويع أبو بكر رضي الله عنه وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه، قال: لِيُتِمَّ بعث أسامة، وقد ارتدت العرب، إما عامَّة وإمَّا خاصة في كل قبيلة ونجم النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ وقِلتهم وكثرة عدوهم، فقال له الناس: إن هؤلاء جُل المسلمين والعرب على – ما ترى – قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين. فقال أبو بكر والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السَّباع تخطَّفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته) [1] وقال أيضاً: (والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطير تخطفنا) [2].

وكان في قرار أبي بكر الصديق–رضي الله عنه– بإنفاذ جيش أسامة حكمة بالغة ظهرت آثارها على وضع المسلمين بعد ذلك حيث إنه أصر على إنفاذ الجيش

(١) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ج 2 ص245 طبع دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الثالثة 1411هـ؛ وانظر البداية والنهاية لابن كثير ج6 ص308.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج 6 ص308.

استجابة لأمر رسول الله ﷺ، وأيضاً لأن المرحلة التي يمر بها المسلمون من حال الضعف تتطلب إظهار القوة والروح المعنوية العالية، التي ما كانت لتظهر إلا بإنفاذ جيش أسامة قال ابن كثير-يرحمه الله-: (فكان خروجه في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم، وقالوا ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة، فقاموا أربعين يوماً ويقال سبعين يوماً، ثم أتوا سالمين غانمين)[1].

وقال المؤرخ محمود شاكر: (وفي إرسال هذا الجيش قوة معنوية كبيرة للمسلمين، وإضعاف واضح لمعنويات المنافقين والمرتدين الذين شعروا أن لدى المسلمين على الأقل قوة معنوية كبيرة جداً ولو لم يكن ذلك لما تم إرسال هذا الجيش إلى تلك المناطق النائية) [2].

ففقه الأولويات في تلك المرحلة كان بالحل الذي اختاره أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو إنفاذ جيش أسامة قبل أي أمور أخرى فترتب على ذلك نتائج إيجابية منها خوف المعادين للمسلمين وإضعاف لقوتهم وروحهم المعنوية فكان انكباتهم وامتناع بعض القبائل عن الردة.

فقه الأولويات عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لقد كان رضي الله عنه يسير وفق منهج النبي ﷺ في دعوته وتعامله؛ فالنبي ﷺ لما نزلت عليه ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [3] بدأ بإنذار المقربين له بدءاً من فاطمة ابنته رضي الله عنها فأعمامه وعمته.. ثم الأقرب فالأقرب لأن ذلك أدعى لقبول الناس دعوته إذا ما رأوا من حوله قد آمنوا بدعوته كما ذكر ذلك ابن حجر في الفتح [4].

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج 6 ص 308.

(٢) التاريخ الإسلامي محمود شاكر ج 3 ص 67.

(٣) سورة الشعراء، آية: 214.

(٤) انظر: فتح الباري ج 8 ص362.

وقد كان عمر رضي الله عنه يقتدي بالنبي ﷺ في ذلك لإدراكه أن الناس دائماً يراقبون الداعية مراقبة دقيقة وتمتد المراقبة إلى أهله والمحيطين به من ذلك ما أخرجه الطبري وابن أبي شيبة عن سالم قال: (كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله، فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير – يعني إلى اللحم – وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة) (١).

ولما أراد رضي الله عنه وضع الديوان (قال له علي وعبدالرحمن بن عوف أبدأ بنفسك، قال: (بل أبدأ بعم رسول الله ﷺ ثم الأقرب فالأقرب...) (٢).

ومما يدل على فقه الأولويات عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه اهتمامه بأمر المسلمين حتى أنه يوصي أمراءه بالمجاهدين وأنهم أهم لديه من الانتصار على العدو فقد ذكر الطبري خطاب عمر بن الخطاب للنعمان بن مقرن رضي الله عنهما يوصيه بالمجاهدين حيث جاء فيه: (من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله، بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفَّرهم، ولا تدخلنهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحبَّ إليَّ من مائة ألف دينار والسلام عليك) (٣).

فقه الأولويات عند علماء السلف:

فقه الأولويات عند شيخ الإسلام ابن تيمية–يرحمه الله–:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج 2 ص568؛ وأخرجه ابن أبي شيبة في الصنف –كتاب الأمراء – ما ذكر من حديث الأمراء والدخول عليهم رقم الرواية (10692) ج11 ص125 انظر المصنف لابن أبي شيبة طبع الدار السلفية – الأولى 1402هـ.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج 2 ص452.

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج 2 ص518.

لقد ظهر في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية –عليه رحمة الله– اهتمامه بفقه الأولويات حيث كانت فتاواه وأقواله تراعي هذا الجانب من ذلك قوله:

(فلابد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده) (١).

وقال أيضاً: (وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات، فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة، إذ بهذا بعثت الرسل، وأنزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح، وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين... وذم الفساد والمفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم يكن مما أمر الله به، وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم، إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباد الله وليس عليه هداهم) (٢).

ولم يكتف ببيان هذا الفقه بل خوَّف الدعاة من عدم مراعاة ذلك بقوله (إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباد الله وليس عليه هداهم).

وقد مر معنا في هذا البحث عدد من أقواله رحمه الله التي يظهر فيها فقهه للأولويات.

فقه الأولويات عند الإمام ابن قيم الجوزية–يرحمه الله–:

من ذلك ما ذكره في إعلام الموقعين في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد قال: (هذا فصل عظيم النفع جداً، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه، ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رُتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد.. – وقد ضرب أمثلة لذلك — منها: أن النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر، ليحصل بإنكاره

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج 28 ص137.

(٢) الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ج 2 ص211.

من المعروف كما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه، وأبغض إلى الله ورسوله، فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم؛ فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر...) [1].

فقه الأولويات عند الإمام ابن الجوزي–يرحمه الله–:

قال الإمام ابن الجوزي في ذكر تلبيس إبليس على العلماء في فنون العلم: (فمن ذلك أن أحدهم يشتغل بالقراءات الشاذة، وتحصيلها، فيفني أكثر عمره في جمعها، وتصنيفها، والإقراء بها، ويشغله ذلك عن معرفة الفرائض، والواجبات، فربما رأيت إمام مسجد يتصدى للإقراء ولا يعرف ما يفسد الصلاة، وربما حمله حب التصدر حتى لا يُرى بعين الجهل على أن يجلس بين يدي العلماء ويأخذ عنهم العلم ولو تفكروا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه ثم فهمه ثم العمل به ثم الإقبال على ما يصلح النفس ويطهر أخلاقها ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع، ومن الغبن الفاحش تضييع الزمان فيما غيره الأهم) [2].

وقال أيضاً: (ومنهم من لا يحفظ القرآن ولا يعرف أركان الصلاة فتشاغل هؤلاء على زعمهم بفروض الكفاية عن فروض الأعيان وإيثار ما ليس بمهم على المهم من تلبيس إبليس) [3].

فجعل عدم فقه الأولويات وتطبيقها من تلبيس إبليس على الناس.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ج 3 ص12.

(٢) تلبيس إبليس لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ص 137 تحقيق د. السيد الجميلي – طبع دار الكتاب العربي – الثانية 1407هـ.

(٣) المرجع السابق ص 142.

فقه الأولويات عند العز بن عبدالسلام–يرحمه الله–:

وممن اهتم كغيره بهذا الفقه الشيخ العز بن عبدالسلام رحمه الله حتى كان مؤلفه قواعد الأحكام زاخراً بالقواعد والأقوال التي يظهر فيها مراعاة هذا الفقه من ذلك قوله: (ومن السعادة أن يختار المرء لنفسه المواظبة على أفضل الأعمال فأفضلها، بحيث لا يضيع بذلك ما هو أولى بالتقديم منه) [1].

فقه الأولويات عند شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب–يرحمه الله–:

لقد ظهر جلياً في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب تأسيه التام بدعوة النبي ﷺ – كسائر علماء ودعاة السلف – فقد طبق في دعوته هذا الفقه الدقيق في مراعاة الأولويات حتى آتت الدعوة ثمارها، وما زالت إلى عصرنا الحاضر على قوتها، لأنها تستمد هذه القوة من المصادر التي أخذت عنها الكتاب والسنة. حيث بدأت دعوته بتقرير العقيدة الصحيحة [2] حتى أن كتبه تهتم بهذا الأصل اهتماماً كبيراً لحاجة الناس في عصره إلى ذلك نظراً لوجود الشرك بين الناس كالتوسل بالصالحين وغير ذلك من مظاهر الشرك، ومؤلفاته حافلة بأقواله التي تدل على عنايته بهذا الأصل. من ذلك بيانه للدعاة ومعلمي الناس طريقة التعليم المثلى، ومراعاة الأولويات في عرض الدعوة، وفي مراعاة حال المدعو أو المتعلم. فقال: (ينبغي للمعلم أن يعلم الإنسان على قدر فهمه، فإن كان ممن يقرأ القرآن، أو عرف أنه ذكى، فيعلمه أصول الدين وأدلته، والشرك وأدلته، ويقرأ عليه القرآن، ويجتهد أنه يفهم القرآن فهم قلب، وإن كان رجلاً متوسطاً ذكر له بعض هذا، وإن كان مثل غالب الناس ضعيف الفهم فيصرح له بحق الله على العبيد، مثل ما ذكر النبي ﷺ لمعاذ...) [3].

---

(١) قواعد الأحكام ج 1 ص 25.

(٢) انظر: عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي د. صالح بن عبدالله العبود ج 1 ص272 طبع مكتبة الغرباء الأثرية – الثالثة – 1417هـ؛ بحوث دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ج 1 ص42 طبع جامعة الإمام 1411هـ.

(٣) الدرر السنية في الأجوبة النجدية للشيخ عبدالرحمن بن قاسم العاصمي النجدي ج 1 ص25 الطبعة السادسة 1417هـ بدون ذكر الناشر.

فقه الأولويات عن الشيخ عبدالعزيز بن باز–يرحمه الله–:

من يطالع مؤلفات الشيخ رحمه الله يدرك اهتمامه بفقه الأولويات حيث إن منهجه في الإفتاء والدعوة مستمد من المنهج النبوي الذي يراعي هذا الجانب، وقد ظهر هذا الاهتمام واضحاً جلياً في محاضراته وفتاواه ومؤلفاته ومن الأمثلة على ذلك: أنه سئل عن حكم الخروج على الولاة والحكام إذا ارتكبوا المعاصي والكبائر فقال: (.. والقاعدة الشرعية المجمع عليها: (أنه لا يجوز إزالة الشر بما هو أشر منه بل يجب درء الشر بما يزيله أو يخففه) أما درء الشر بشر أكثر فلا يجوز بإجماع المسلمين، فإذا كانت هذه الطائفة التي تريد إزالة السلطان الذي فعل كفراً بواحاً عندها قدرة تزيله بها، وتضع إماماً صالحاً طيباً من دون أن يترتب على هذا فساد كبير على المسلمين، وشر أعظم من شر هذا السلطان فلا بأس) [1].

فقه الأولويات عند الشيخ محمد بن صالح العثيمين – يرحمه الله–:

وقد دلت كتب ومؤلفات ومحاضرات الشيخ رحمه الله على عنايته بهذا الأصل العظيم، إذ إنه كسائر علماء هذا البلد ممن تأثروا بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية التي تسير وفق منهج النبي ﷺ في الإفتاء والدعوة، ومما يدل على عناية الشيخ بهذا الأصل بيانه لمنهج أهل السنة والجماعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث اشترط أن يكون وفق ما توجبه الشريعة وتقتضيه وعد لذلك شروطاً:

(الشرط الأول: أن يكون عالماً بحكم الشرع فيما يأمر به أو ينهى عنه..

الشرط الثاني: أن يعلم بحال المأمور: هل هو ممن يوجه إليه الأمر أو النهي أم لا؟ فلو رأى شخصاً يشك هو مكلف أم لا؛ لم يأمره بما لا يؤمر به مثله حتى يستفصل.

الشرط الثالث: أن يكون عالماً بحال المأمور حال تكليفه؛ هل قام بالفعل أم لا؟.

فلو رأى شخصاً دخل المسجد ثم جلس، وشك هل صلى ركعتين فلا ينكر عليه، ولا يأمره بهما حتى يستفصل ودليل ذلك (أن النبي ﷺ كان يخطب يوم

(١) الإمام عبدالعزيز بن باز – عبدالرحمن يوسف الرحمة ص357 طبع دار الهجرة للنشر والتوزيع – الثانية 1421هـ.

الجمعة، فدخل رجل فجلس، فقال له النبي ﷺ "أصليت" قال لا. قال: "قم فصل ركعتين وتجوز فيهما")[1].

الشرط الرابع: أن يكون قادراً على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا ضرر يلحقه؛ فإن لحقه ضرر لم يجب عليه، لكن إن صبر وقام به، فهو أفضل؛ لأن جميع الواجبات مشروطة بالقدرة والاستطاعة...) [2].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة باب من جاء والإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين ج 1 ص223؛ وأخرجه مسلم في كتاب الجمعة باب التحية والإمام يخطب حديث رقم (55 – 875) ج1 ص596.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ج 8 ص651.

المبحث الرابع

الآثار السلبية لعدم الأخذ بفقه الأولويات

الآثار السلبية لعدم الأخذ بفقه الأولويات

لا شك أن فقه الأولويات وإنزال الأمور منازلها يعد من الحكمة التي أمر الله بها في الدعوة إلى دينه قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[1]. والحكمة هي وضع الشيء في موضعه [2].

لذا فإن عدم الأخذ بفقه الأولويات مخالف للحكمة التي أرادها الله تعالى، وأمر بها رسوله ﷺ للدعوة إلى دينه القويم وصراطه المستقيم.

وعدم الأخذ بهذا الفقه له آثار سلبية من ذلك:

1 – مخالفة المنهج النبوي في الدعوة إلى الله:

حيث إن منهج الدعوة لابد أن يكون موافقاً لما شرعه الله سبحانه وتعالى، وليست مناهج الدعوة مفوضة إلى الناس يضعون مناهج لأنفسهم، بل المنهج وضعه الله سبحانه وتعالى ورسمه وطبقه الرسول ﷺ في سيرته العطرة وكذلك أتباع الرسول ﷺ الذين ساروا على منهجه [3] حيث قال الله عز وجل: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ... ﴾[4].

فهذا توجيه رباني في طريقة الدعوة للنبي ﷺ ولأتباعه من بعده قال الشوكاني: (وفي هذا دليل على أن كل متبع لرسوله ﷺ حق عليه أن يقتدي به في الدعاء إلى الله) [5].

---

(١) سورة النحل، آية: 125.

(٢) انظر: مدارج السالكين للإمام ابن القيم ج 2 ص 448.

(٣) انظر: صفات الداعية الناجح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان ص 17 إعداد عادل الفريدان طبع دار النجاح للنشر الأولى 1418هـ.

(٤) سورة يوسف، آية: 108.

(٥) فتح القدير للشوكاني ج 3 ص59.

والمنهج بيَّنه الله عز وجل، بقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[1].

والنبي ﷺ في دعوته يسير وفق وحي إلهي يوجهه ويرعاه فهو لا ينطق عن الهوى قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾[2].

قال ابن كثير– يرحمه الله– في تفسير هذه الآية: (أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ أي إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان)[3].

ورسول الله ﷺ يسير بعناية الله تعالى، وعلى عينه كما قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾[4].

قال الطبري: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ يا محمد الذي حكم به عليك وامض لأمره ونهيه، وبلغ رسالاته ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾... فإنك بمرأى منا نراك ونرى عملك ونحن نحوطك ونحفظك...)[5].

فكان نجاح دعوة الإسلام وانتشارها في أصقاع الأرض، أنها سارت على هذا المنهج الذي ارتضاه الله عز وجل لعباده، ولاشك أن الخروج عن هذا المنهج خروج عن الحكمة، فيكون فشل الداعية بحسب بعده عن هذا المنهج لأن الله تعالى رسم الطريق لنبيه ﷺ بقوله ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾ ومن يخالف هذا الطريق يضل ومن يضل الطريق لا يصل إلى الهدف.

---

(١) سورة النحل، آية: 125.

(٢) سورة النجم، آية: 3 – 4.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج 4 ص 248.

(٤) سورة الطور جزء من آية: 48.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج 27 ص37؛ وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج4 ص246.

2 – العمل بغير مقاصد الشريعة:

فقصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقاً لقصده في التشريع، إذ إن الشريعة وضعت لمصالح العباد والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك أفعاله، وأن لا يقصد خلاف ما قصد الشارع [1].

وقصد الشارع دخول الناس في دين الله عز وجل، وطاعته سبحانه وتعالى فيما أمر، والانتهاء عما نهى وزجر، ولا شك أن لذلك طريقاً وسبيلاً هو فقه دين الله عز وجل، وفقه تبليغه، فمن لم يفقه الدين ولم يُحصِّل من العلم ما يؤهله للدعوة إلى دين الله عز وجل، ومعرفة كيف يبلغ هذا الدين فقد خالف قصد الشارع، إذ أن القصد هداية الخلق وفق ما أمر الله تعالى به، وفقه الأولويات من الأمور التي يجب على الداعية فقهها ومعرفتها إذ يترتب على عدم فقهها والعمل بها مفاسد تجعل قصد الشارع لا يتحقق بل يتحقق ضده قال الشاطبي: (كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها فعمله في المناقضة باطل، فمن ابتغى في التكاليف ما لم تشرع له فعمله باطل، أما أن العمل المناقض باطل فظاهر؛ فإن المشروعات إنما وضعت لتحصيل المصالح ودرء المفاسد، فإذا خولفت لم يكن في تلك الأفعال التي خولف بها جلب مصلحة ولا درء مفسدة) [2].

وقد بين مثل هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال في معرض حديثه عن أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات (وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة؛ إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد... فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد تُرك واجب وفُعل محرم؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده وليس عليه هداهم) [3].

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي ج 2 ص251.

(٢) الموافقات للشاطبي ج 2 ص252.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج 28 ص 126.

وممن أوضح ذلك الإمام ابن القيم حيث بين أن الشريعة مبنية على مصالح وقع بسبب الجهل بذلك غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة ما لا سبيل إليه حيث قال ما نصه: ("الشريعة مبنية على مصالح العباد" هذا فصل عظيم النفع جداً، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة تكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به... فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة)[1].

3 – ضياع الجهد والوقت:

إن عدم الأخذ بفقه الأولويات يضيع جهد الدعاة، وأوقاتهم، فإذا غابت المنهجية، والفقه بمراتب الأعمال، فإن الداعية قد يقدم المفضول على الفاضل والمهم على الأهم بل ربما قدم النوافل على الفرائض أو التحسينيات على الحاجيات، أو الحاجيات على الضروريات [2] في مختلف جوانب الحياة لافتقاد المنهجية، والتفكير المنهجي العلمي الرصين، المنضبط وهذا الاضطراب في الأعمال يثمر ضعف هذه الأعمال وتشتيت الجهود وإهدار الطاقات والأوقات بل عد العلماء أن عدم الفقه بالأولويات يعد من الشرور كما قال الغزالي: (وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور) [3].

في حين أن العلم بفقه الأولويات يجعل الرؤية واضحة لدى الداعية، وتكون الأمور حاضرة في ذهنه، لعلمه السابق بما يقدم وما يؤخر، فيسير على بينة من أمره قال ابن القيم: (الجهل بالطريق وآفاتها والمقصود يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة، فإن صاحبه إما أن يجتهد في نافلة مع إضاعة الفرض، أو في عمل بالجوارح لم

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ج 3 ص11.

(٢) انظر: الموافقات للشاطبي ج 2 ص7 حيث بين أن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لاتعدو ثلاثة أقسام: أحدها: أن تكون ضرورية. والثاني: أن تكون حاجية. والثالث: أن تكون تحسينية.

(٣) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد الغزالي ج 3 ص403، طبع دار إحياء التراث العربي.

يواطئه عمل القلب، أو عمل بالباطن والظاهر لم يتقيد بالاقتداء.... فهذا كله مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب) [1].

4 – نقصان الأجر: من الآثار السلبية لعدم الأخذ بفقه الأولويات نقصان الأجر، فالإنسان قد يخسر كثيراً من الثواب بسبب ذلك إذ ربما تقرب إلى الله أو دعى إليه بغير الأهم وبغير الفاضل فيخسر بذلك خسراناً مبيناً، قال ابن القيم–يرحمه الله– عاداً العقبات التي يضعها الشيطان في طريق بني آدم: (العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسباً وربحاً، **لأنه لمَّا عجز** عن تخسيره أصل الثواب طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، والمحبوب لله عن الأحب إليه، والمرضي عن الأرضى له) [2].

ومن الأدلة من السنة على أن عدم الفقه بالأولويات ربما يكون سبباً في نقصان الأجر بل ربما في ضياعه ما رواه أبو هريرة قال: (قال رجل: يا رسول الله فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: هي في النار.

قال: يا رسول الله فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها وأنها تصدق بالأثوار من الأقط [3] ولا تؤذي جيرانها بلسانها قال: هي في الجنة) [4].

---

(١) الفوائد للإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية ص 211 تحقيق محمد عبدالقادر الفاضلي طبع المكتبة العصرية بيروت 1422هـ.

(٢) مدارج السالكين ج 1 ص240.

(٣) (الأثوار من الإقط): ثور أقِط. الثور: القطعة من الأقط وجمعه أثوار (انظر: غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ج2 ص127 طبع دار الكتاب العربي1396هـ).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج 2 ص440 وقال الهيثمي: (رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات. (انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين أبو بكر الهيثمي ج8 ص169 طبع دار الريان للتراث – دار الكتاب العربي).

ومثل ذلك يحصل بين المسلمين، إذ ربما البعض يحرص على كثرة التزود بالطاعات ولكنه يفسد أجره ويضيعه بأمور أخرى لا يلقي لها بالاً من إيذاء الناس باللسان أو غيره؛ ومثل هؤلاء ينطبق عليهم قول ابن الجوزي-يرحمه الله-: (رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة ولا يتحاشون من غيبة، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت في أشياء يطول عددها من حفظ فروع وتضييع أصول) [١].

ومما يدل أيضاً على أن عدم الفقه بالأولويات قد يكون سبباً في نقصان الأجر ما أخرجه مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: (كنا مع النبي ﷺ في السفر فمنا الصائم ومنا المفطر. قال فنزلنا منزلاً في يوم حار أكثرنا ضلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده قال: فسقط الصوام [٢]، وقام المفطرون فضربوا الأبنية [٣] وسقوا الرِّكاب [٤] فقال رسول الله ﷺ ذهب المفطرون بالأجر[٥]) [٦].

5 – نفور المدعو: من الآثار السلبية لعدم الأخذ بفقه الأولويات نفور المدعو، فمن الفقه مراعاة أركان الدعوة كلها وهي الداعية، والمدعو، وموضوع الدعوة [٧]، والوسيلة

(١) صيد الخاطر ص 224.

(٢) فسقط الصوام: أي صاروا قاعدين في الأرض ساقطين عن الحركة ومباشرة حوائجهم لضعفهم بسبب صومهم (انظر: هامش محمد فؤاد عبدالباقي على صحيح مسلم ج1 ص788).

(٣) (فضربوا الأبنية): أي نصبوا الأخبية وأقاموها على أوتاد مضروبة في الأرض (انظر: المرجع السابق ج 1 ص788).

(٤) (وسقوا الركاب) أي الرواحل وهي الأبل التي يسار عليها (انظر المرجع السابق ج 1 ص788).

(٥) (ذهب المفطرون بالأجر): أي استصحبوه ومضوا به، ولم يتركوا لغيرهم شيئاً منه على سبيل المبالغة (انظر: المرجع السابق ج1 ص788).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الصيام باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل حديث رقم (100) – (1119) ج1 ص788.

(٧) انظر: المدخل إلى علم الدعوة. محمد أبوالفتح البيانوني ص152 طبع مؤسسة الرسالة، الثالثة 1415هـ.

والأسلوب[١]، فكل ركن منها يُحتاج فيه إلى فقه الأولويات إذ إن الخلل في أي منها قد يسبب نفور المدعو.

فالركن الأول: الداعية: إذ يلزمه طلب العلم قبل الدعوة إذ إن من شروط الدعوة العلم قبل العمل فالله سبحانه بين في كتابه أن الدعوة إلى الله تكون على علم وبصيرة: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾[٢] أي على حجة واضحة والبصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل [٣].

وقد قال الإمام النووي: (إنما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه) [٤].

فدعوته على غير علم وبصيرة وفقه تؤدي إلى نفور المدعو وإيقاع الضرر به إذ ربما أمر بمنكر ونهى عن معروف وقد ينطبق عليه قول النبي ﷺ: (من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)[٥].

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: (إن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه أو على ضلالة كان عليه مثلا آثام تابعيه، سواء كان ذلك الهدى، أو الضلالة هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقاً إليه وسواء كان ذلك تعليم علم أو عبادة أو أدب أو غير ذلك)[٦].

---

(١) انظر: أصول الدعوة. عبدالكريم زيدان، ص411، طبع مؤسسة الرسالة، الخامسة 1417هـ.

(٢) سورة يوسف، آية: 108.

(٣) انظر: فتح القدير للشوكاني ج3 ص59.

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم ج1 ص 300.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة حديث رقم (16 – 2674) ج3 ص2059.

(٦) شرح النووي ج8 ص 480.

فالداعية الذي لا يفقه الأولويات ولا يعلم إلى ماذا يدعو ضرره أكبر من نفعه كما قال عمر بن عبدالعزيز: (من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح)(١).

أما الركن الثاني فهو المدعو: إذ إن عدم فقه التعامل مع المدعو يؤدي إلى نفوره كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾(٢).

فالفظاظة والغلظة وعدم اللين والرفق تسبب نفور المدعو كما أخبر بذلك رب العباد نبيه محمداً ﷺ بما امتن به عليه من رفقه ولينه ورحمته بالمدعوين مما جمع الله به قلوب أصحابه عليه كما فسر ابن كثير هذه الآية بقوله: (أي لو كنت سيئ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك وألان جانبك تآليفاً لقلوبهم)(٣).

وقد اهتم العلماء قديماً وحديثاً بالأسلوب الذي يجب أن يخاطب به المدعو من ذلك ما ذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾(٤) حيث قال: (هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين)(٥).

وما كان هذا الأمر الإلهي باللطف بفرعون على عتوه وطغيانه إلا رجاء عدم نفوره من الداعية والدعوة وقد نص العلماء على أن لا يخاطب المدعو إلا باللين

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص 366 طبع دار الريان للتراث. القاهرة – 1408هـ؛ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج28 ص134.

(٢) سورة آل عمران، جزء من آية: 159.

(٣) تفسير القرآن العظيم ج1 ص 397.

(٤) سورة طه، الآيتان: 43 – 44.

(٥) تفسير القرآن العظيم ج3 ص 149.

والرفق والشفقة وإظهار المحبة رجاء عدم نفوره وإقباله على الدعوة من ذلك قول الغزالي في إحياء علوم الدين مبيناً الأسلوب الذي يخاطب به المدعو: (وإذا كان التعريف كشفاً للعورة، مؤذياً للقلب فلابد وأن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق... ليحصل التعريف من غير إيذاء فإن إيذاء المسلم حرام محذور)(١).

وقال النحاس في تنبيه الغافلين مبيناً كيف يوعظ المدعو: (فهذا ينبغي أن يوعظ... ويدَّرج الكلام معه تدريجياً بشفقة ولطف من غير تعنيف ولا غضب ولا ازدراء، ولكن ينظر إليه بعين الرحمة)(٢).

وقال في الكنز الأكبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (ومما يستحب للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، القائم في حدود الله أعانة الله تعالى أن يكون قصده رحمة الخلق كلهم والشفقة عليهم بكف الناس عن المنكرات التي هي سبب الدمار في الدنيا والعقوبات في الآخرة)(٣).

وكل ذلك رجاء استجابة المدعو وعدم نفوره.

* موضوع الدعوة:

أما في موضوع الدعوة فيبدأ بالأهم فالأهم فتقدم العقائد على غيرها من العبادات والأخلاق، ويدل على هذا الواقع العملي للدعوة الإسلامية في الصدر الأول حيث بدأت الدعوة بتأسيس العقائد ثم انتقلت إلى بيان الشرائع والأحكام.

وقد بين الشيخ محمد بن صالح العثيمين الحكمة في التدرج وعدم الاستعجال في تحول الناس من حال إلى حال: (ليس من الحكمة أن تتعجل وتريد من الناس أن ينقلبوا عن حالهم التي هم عليها إلى الحال التي كان عليها الصحابة بين عشية وضحاها، ومن أراد ذلك فهو سفيه في عقله بعيد عن الحكمة..

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ج2 ص 330.

(٢) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين الإمام أحمد بن إبراهيم الدمشقي الشهير بابن النحاس ص 38 طبع المكتبة العصرية – لبنان – 1422هـ.

(٣) الكنز الأكبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبدالرحمن بن أبي بكر داود الصالحي ج 1 ص415 طبع مكتبة نزار الباز. مكة المكرمة – الرياض – 1418هـ.

ويدلك لهذا أن محمداً رسول الله ﷺ وهو الذي ينزل عليه الكتاب نزل عليه الشرع متدرجاً حتى استقر في النفوس وكمل)[1].

- أما الوسيلة والأسلوب فقد بينها المولى عز وجل في كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[2].

ويلاحظ في الآية أنه نص أن تكون الموعظة حسنة والجدال بالتي هي أحسن والسبب في ذلك كون الموعظة يقصد بها ردع نفس الموعوظ عن أعمال سيئة، فكانت مظنة لصدور غلظة من الواعظ، وحصول انكسار في نفس الموعوظ. فنص على أن تكون حسنة[3].

أما الجدال فنص على أن يكون بالتي هي أحسن لأن الجدال مظنة الإغضاب، فإذا كان بالتي هي أحسن، حصلت منفعته بغاية الإمكان [4].

(١) زاد الداعية إلى الله للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص24. 25.

(٢) سورة النحل، الآية: 125.

(٣) انظر: مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله للدكتور صالح بن عبدالله بن حميد، ص 12. طبع وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، الثالثة 1423هـ.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج2 ص45.

الخاتمة

الحمد لله الذي منّ عليّ بإنجاز هذا البحث الموسوم بفقه الأولويات في الدعوة إلى الله تعالى والذي حاولت بذل قصارى جهدي فيه ليخرج بالصورة المطلوبة.

وقد ظهر لي من خلال هذا البحث عدد من النتائج منها:

- أن فقه الأولويات في الدعوة إلى الله هو ترتيب أمورها فيما يجب أن يقدم أو يؤخر حسب أركان الدعوة. ويكون هذا الترتيب وفق الضوابط الشرعية.
- أن الدعوة يجب أن تكون وفق منهج الله الذي أرشد نبيه محمد ﷺ والأنبياء من قبله في طريقة عرضها إذ كانت وفق الأولويات.
- الكتاب والسنة زاخران ببيان فقه الأولويات في الدعوة إلى الله تعالى.
- أن لفقه الأولويات في الدعوة إلى الله تعالى ضوابط شرعية يجب الأخذ بها عند التخطيط والعمل منها:
  - تحديد الهدف.
  - تحديد أنواع الأعمال المراد إنجازها.
  - تحديد الوسيلة التي سيتم استخدامها.
  - تحديد الأسلوب المناسب للدعوة.
  - تحديد إطار زمني لتحقيق الهدف.
- إن لفقه الأولويات في الدعوة إلى الله تعالى ضوابط شرعية يجب الأخذ بها عند التزاحم منها:
  - إذا تزاحمت مصلحتان تقدم الأكثر مصلحة على الأقل مصلحة.
  - إذا تزاحمت مفسدتان يقدم الأقل مفسدة على الأكثر مفسدة.
  - إذا تعارضت المصالح والمفاسد يجب ترجيح الراجح منها.
  - تقديم الأصول على الفروع والفرائض على النفل.
  - العمل متعدي النفع أولى من القاصر.
  - العمل المستمر أو الدائم أفضل من المنقطع.

- دلت كتب السنة والسيرة النبوية على عناية المصطفى ﷺ بالعمل وفق الأولويات.
- دلت كتب التاريخ والسير على أن الصحابة رضوان الله عليهم؛ والسلف الصالح، ومن بعدهم العلماء المعاصرون على العناية التامة بفقه الأولويات اقتداء بالنبي ﷺ .

-أن لعدم الأخذ بفقه الأولويات آثار سلبية منها:

- مخالفة المنهج النبوي في الدعوة إلى الله تعالى.
- العمل بغير مقاصد الشريعة.
- ضياع الجهد والوقت.
- نقصان الأجر.
- نفور المدعو.

التوصيات:

إن فقه الأولويات من العلوم الهامة التي يجب أن يفقهها طلاب العلم، والمهتمون بأمر الدعوة إذ يجب أن يُدَرَّس هذا الفقه في أقسام الدعوة، وكذلك أن يُضم هذا الفقه للدورات الشرعية في إعداد الدعاة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

المراجع

(١) أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الأمة. الشيخ عبدالله بن حسن آل قعود، طبع دار العاصمة – الرياض – الطبعة الأولى، 1411هـ.

(٢) إحياء علوم الدين. أبوحامد محمد الغزالي. طبع دار إحياء التراث العربي – بيروت. بدون ذكر الطبعة وتاريخ الطبع.

(٣) الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام، 1411هـ.

(٤) أصول الدعوة. عبدالكريم زيدان – طبع مؤسسة الرسالة – الخامسة، 1417هـ.

(٥) الاعتدال في الدعوة. الشيخ محمد بن صالح العثيمين – إعداد فهد بن ناصر السليمان. طبع دار الثريا – الأولى، 1415هـ.

(٦) إعلام الموقعين عن رب العالمين. الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية. طبع دار الكتب العلمية – بيروت، 1417هـ.

(٧) الإنجاز في ترجمة الإمام عبدالعزيز بن باز. عبدالرحمن يوسف الرحمة. طبع دار الهجرة – الثانية، 1421هـ.

(٨) بحوث ندوة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الثانية، 1411هـ.

(٩) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير الدمشقي. طبع دار الريان للتراث – الأولى، 1408هـ.

(١٠) تاج العروس من جواهر القاموس. محمد مرتضى الزبيدي – تحقيق علي شيري – طبع دار الفكر – بيروت، 1414هـ.

(١١) تاريخ الطبري. تاريخ الأمم والملوك. الإمام محمد بن جرير الطبري. طبع دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الثالثة 1411هـ.

(١٢) التاريخ الإسلامي. محمود شاكر. طبع المكتب الإسلامي – السابعة، 1411هـ.

(١٣) التدرج بين التشريع والدعوة. د. يوسف محي الدين أبوهلالة – طبع دار العاصمة – الأولى، 1412هـ.

(١٤) التعريفات. علي بن محمد الجرجاني – تحقيق إبراهيم الأبياري – طبع دار التراث – بدون رقم الطبعة وتاريخ الطبع.

(١٥) تفسير القرآن العظيم. الإمام عماد الدين إسماعيل بن كثير – طبع مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، 1413هـ.

(١٦) تلبيس إبليس. الإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي – تحقيق د. الجميلي – طبع دار الكتاب العربي – الثانية، 1407هـ.

(١٧) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أعمال الجاهلين. الإمام أحمد بن إبراهيم الدمشقي الشهير بابن النحاس – طبع المكتبة العصرية – لبنان، 1422هـ.

(١٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. الشيخ عبدالرحمن بن سعدي تحقيق محمد زهيري النجار – طبع مكتبة الخلفاء – الرياض – مكتبة الهدى – الخبر – الأولى، 1408هـ.

(١٩) جامع البيان عن تأويل أي القرآن لابن جرير الطبري. طبع دار الفكر 1405هـ.

(٢٠) الدرر السنية في الأجوبة النجدية. جمع الشيخ عبدالرحمن بن قاسم بدون ذكر الناشر. الطبعة السابعة، 1425هـ.

(٢١) الدعوة الإسلامية – أصولها – ووسائلها – د. أحمد غلوش – طبع دار الكتب الإسلامية، الثانية، 1407هـ.

(٢٢) الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة. الشيخ عبدالعزيز بن باز – طبع دار القاسم – الثانية، 1417هـ.

(٢٣) الدعوة إلى الله تعالى. عبدالرب نواب الدين ص 123 طبع دار القلم، الدار الشامية – الأولى، 1410هـ.

(٢٤) الرحيق المختوم. صفي الدين المباركفوري. طبع دار الوفاء – مصر، 1411هـ.

(٢٥) رسالة إلى الدعاة. الشيخ محمد بن صالح العثيمين. طبع مؤسسة آسام – الأولى، 1412هـ.

(٢٦) زاد المعاد في هدي خير العباد. ابن قيم الجوزية تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط – طبع مؤسسة الرسالة – مكتبة المنار الإسلامية – الطبعة السابعة والعشرون، 1414هـ.

(٢٧) زاد الداعية إلى الله. الشيخ محمد بن صالح العثيمين. طبع الجمعية السعودية للدراسات الدعوية.

(٢٨) الزهد. الإمام أحمد بن حنبل. طبع دار الريان للتراث – القاهرة – الأولى، 1408هـ.

(٢٩) سنن ابن ماجه. الحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد. طبع دار الدعوة – دار سحنون – الثانية، 1413هـ.

(٣٠) سنن أبي داود للحافظ أبي داود سليمان ابن الأشعث – طبع دار الدعوة – دار سحنون – الثانية، 1413هـ.

(٣١) سنن الترمذي. محمد بن عيسى بن سورة. طبع درا الدعوة – دار سحنون – الثانية 1413هـ.

(٣٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية. د. مهدي رزق الله – الطبعة الأولى، 1412هـ.

(٣٣) شرح النووي لصحيح مسلم للإمام النووي. طبع دار أبي حيان – الأولى، 1415هـ.

(٣٤) صحيح البخاري. الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري. طبع دار الدعوة – دار سحنون – الثانية، 1413هـ.

(٣٥) صحيح سنن أبي داود. الشيخ محمد ناصر الدين الألباني – مكتب التربية العربي لدول الخليج – الأولى، 1409هـ.

(٣٦) صحيح مسلم. الإمام مسلم بن الحجاج. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي – طبع دار الدعوة – دار سحنون – الثانية، 1413هـ.

(٣٧) صفات الداعية الناجح. الشيخ صالح بن فوزان الفوزان – طبع دار النجاح – الأولى 1418هـ.

(٣٨) صيد الخاطر. الإمام أبي الفرج ابن الجوزي. تحقيق محمد عبدالرحمن عوض – طبع دار الكتاب العربي – الثانية، 1407هـ.

(٣٩) عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي. د. صالح العبود – طبع مكتبة الغرباء الأثرية – الثالثة، 1417هـ.

(٤٠) غريب الحديث. لأبي عبيد القاسم بن سلاَّم. طبع مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد – الهند، 1387هـ.

(٤١) فتح القدير. محمد بن علي الشوكاني – طبع دار الفكر، 1403هـ.

(٤٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. طبع دار الريان للتراث – القاهرة – الطبعة الثانية 1409هـ.

(٤٣) الفوائد. الإمام ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد عبدالقادر الفاضلي – طبع المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1422هـ.

(٤٤) فقه الأولويات الدعوية. علي بن محمد الشنقيطي. رسالة دكتوراه غير منشورة.

(٤٥) فقه الأولويات – دراسة في الضوابط. محمد الوكيلي – طبع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1416هـ.

(٤٦) في فقه الأولويات. دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة. د. يوسف القرضاوي. طبع مكتبة وهبة – القاهرة، الثانية، 1416هـ.

(٤٧) القاموس المحيط. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. طبع مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان – الثانية، 1407هـ.

(٤٨) قواعد أساسية في البحث العلمي . د/ سعيد اسماعيل صيني . طبع مؤسسة الرسالة – الأولى، 1415

(٤٩) القواعد الكبرى الموسوم بـ قواعد الأحكام في إصلاح الأنام. الشيخ عز الدين بن عبدالسلام – تحقيق: نزيه حماد – د. عثمان ضميرية – طبع دار القلم – دمشق . بدون تاريخ.

(٥٠) الكنز الأكبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. عبدالرحمن بن أبي داود الصالحي. طبع مكتبة نزار الباز – مكة المكرمة – الرياض، 1418هـ.

(٥١) لسان العرب. لأبي الفضل جمال الدين بن منظور الأفريقي. طبع دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى، 1997م.

(٥٢) مباحث في علوم القرآن. الشيخ مناع بن خليل القطان. طبع مؤسسة الرسالة – الثالثة، 1401هـ.

(٥٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. الحافظ أبوبكر الهيثمي. طبع دار الريان للتراث – القاهرة – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان، 1407هـ.

(٥٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع وترتيب الشيخ عبدالرحمن بن قاسم. بدون ذكر الناشر وتاريخ النشر.

(٥٥) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين. جمع وترتيب فهد بن ناصر السليمان – طبع دار الثريا. الطبعة الثانية، 1417هـ.

(٥٦) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز – جمع: د. محمد بن سعد الشويعر – طبع دار المؤيد – الأولى، 1421هـ.

(٥٧) مختصر منهج القاصدين. ابن قدامة المقدسي. طبع دار التوفيق – الأولى، 1422هـ.

(٥٨) مدارج السالكين. الإمام ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد المعتصم البغدادي – طبع دار الكتاب العربي – الثانية، 1414هـ.

(٥٩) المسند للإمام أحمد بن حنبل. طبع دار الدعوة – دار سحنون – الثانية، 1413هـ.

(٦٠) المسند للإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر – طبع دار المعارف – مصر، 1373هـ.

(٦١) المصنف. ابن أبي شيبة – طبع الدار السلفية – الأولى، 1402هـ.

(٦٢) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول. الشيخ حافظ الحكمي. طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

(٦٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. الإمام ابن قيم الجوزية – تحقيق: سيد إبراهيم – علي محمد. طبع دار الوليد – جدة – الأولى 1414هـ.

(٦٤) مفهوم الحكمة في الدعوة. د. صالح بن عبدالله بن حميد. طبع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – الثالثة 1423هـ.

(٦٥) الموطأ. مالك بن أنس. طبع دار الدعوة – دار سحنون الثانية، 1413هـ.

(٦٦) الموافقات في أصول الشريعة. لأبي إسحاق الشاطبي – طبع دار الكتب العلمية. بيروت، 1422هـ.

(٦٧) موسوعة القواعد الفقهية. د. محمد صدقي البورنو – طبع مؤسسة الرسالة – الأولى، 1424هـ.

(٦٨) النهاية في غريب الحديث والأثر. الإمام ابن الأثير – تحقيق: محمود الطناجي – طبع دار الفكر – بيروت.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة.	**2**
التمهيد.	**6**
المطلب الأول: مفهوم فقه الأولويات في الدعوة والتعريف به.	7
المطلب الثاني: أهمية معرفة فقه الأولويات في حياة الداعية.	10
المبحث الأول: التأصيل الشرعي لفقه الأولويات في الدعوة.	**13**
المبحث الثاني: الضوابط الشرعية لفقه الأولويات في الدعوة.	**19**
المطلب الأول: ضوابط شرعية في تقديم الأولويات عند التخطيط والعمل.	20
الضابط الأول: تحديد الهدف.	20
الضابط الثاني: تحديد أنواع الأعمال المراد إنجازها.	24
الضابط الثالث: تحديد الوسيلة التي سيتم إتباعها.	26
الضابط الرابع: تحديد الأسلوب المناسب.	29
الضابط الخامس: تحديد إطار زمني لتحقيق الهدف.	32
المطلب الثاني: ضوابط شرعية في تقديم الأولويات عند التزاحم.	36
الضابط الأول: إذا تزاحمت مصلحتان تقدم الأكثر مصلحة	36
الضابط الثاني: إذا تزاحمت مفسدتان يقدم الأقل مفسدة على الأكثر مفسدة.	38
الضابط الثالث: إذا تعارضت المصالح والمفاسد يجب ترجيح الراجح منها.	40
الضابط الرابع: تقديم الأصول على الفروع والفرائض على النفل.	42
الضابط الخامس: العمل متعدي النفع أولى من القاصر.	44
الضابط السادس: العمل الدائم أفضل من المنقطع.	46

الموضـــوع	الصفحة
المبحث الثالث: نماذج وأمثلة من فقه الأولويات من السيرة النبوية وحياة السلف الصالح والدعاة المعاصرين.	**48**
– فقه الأولويات في السيرة النبوية.	49
– فقه الأولويات عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه.	54
– فقه الأولويات عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه.	55
– فقه الأولويات عند شيخ الإسلام ابن تيمية.	56
– فقه الأولويات عند ابن قيم الجوزية.	57
– فقه الأولويات عند ابن الجوزي.	58
– فقه الأولويات عند العز بن عبدالسلام.	59
– فقه الأولويات عند الشيخ محمد بن عبدالوهاب.	59
– فقه الأولويات عند الشيخ عبدالعزيز بن باز.	60
– فقه الأولويات عند الشيخ محمد بن صالح العثيمين.	60
المبحث الرابع: الآثار السلبية لعدم الأخذ بفقه الأولويات.	**62**
– مخالفة المنهج النبوي في الدعوة إلى الله.	63
– العمل بغير مقاصد الشريعة.	65
– ضياع الجهد والوقت.	66
– نقصان الأجر.	67
– نفور المدعو.	68
الخاتمـة.	**73**
فهرس المراجع والمصادر.	**75**
فهرس الموضوعات.	**80**